الشيخ بسام جرار

# أسرار الكتاب

مركز نون للأبحاث والدراسات القرآنية

# الفهرست

# مقدمة

نعم، حتى الأسماء يمكن أن تتجلى فيها المعـاني والأسـرار، كيف لا، ونحن نتعامل مع القرآن الكريم؟! وإن جاز لنا أن نهمل دلالة الاسم في عمل فكري بشري، فهل يجوز لنا أن نفعـل ذلـك عنـدما نتعامل مع كتاب رب العالمين؟! فكل اسم ورد في القرآن الكريم لا بد أن تكون له دلالات وظلال. وقد توصلنا إلى هـذه القناعـة بعـد أن تَحصل لدينا ملاحظات كثيرة تتعلق بالأسماء القرآنية، رأينا أن نُطلع القارئ الكريم على بعضٍ منها.

في البداية كان الأمر يتعلّق بأسماء الأعلام في القرآن الكـريم، وعلى وجه الخصوص الرسل والأنبياء، عليهم السلام؛ فقد لاحظنا أن هناك أسماء لبعض الأعلام الكرام هي وحي رباني، وذلك مثل:

"وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها **بإسحق** ومن وراء إسحق **يعقـوب**" **(هود71 )** ومثل: "يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه **يحيى**" **(مريم7).** ومثل: "إذ قالت الملائكة يا مريم إن ا يبشرك بكلمة منـه اسـمه **المسـيح عيسى ابن مريم".آل عمران45**

وبما أن التسمية ربانية فلا بُد من حكمة، ولا بُد من سر؛ فلماذا " **اسمه أحمد** "، ولماذا **الزبور**، ولماذا **المسجد الأقصا**...؟ فلا بد من

التدبر والبحث والاستقصاء، في محاولة للوصول إلى بعض أسـرار هذه الأسماء. وقد قمنا في مركز نون للدراسات القرآنية بمتابعة ذلك، فكانت هناك نتائج ومعطيات إيجابية، ولكن الكثير منها بحاجـة إلـى استكمال وتدليل.

هكذا، كما قلنا، كانت البداية. إلا أننا وجدنا أنّه يمكن أن نجعل الأسماء بشكل عام، وليس أسماء الأعلام فقط، المدخل إلـى أسـرار مسائل في التفسير وغيرها. ويلاحظ القارئ ميلنـا إلـى الاختصـار والتركيز عند عرض الأفكار، لعلمنا أن الناس بـاتوا ينفـرون مـن المطولات.

وأخيراً نجد من المناسب أن نذكّر بأن مقالات هذا الكتاب هي بعض ما نُشر في صحيفة القدس المقدسية، وصحيفة أخبار الخليـل، وذلك في الأعوام 2000 و 2001م . وقد تم نشرها أيضـاً علـى صفحة مركز نون الالكترونية.

**ربنا عليك توكّلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير**

**بسام نهاد جرار**

البيرة – فلسطين

**28** شعبان 1424 هجرية

24 تشرين أول 2003 ميلادية

# أحـمـد

جاء في **عمدة الحفّاظ**، للسمين الحلبي، أن لفظ **( الاسم )** مشتق من السمو، وهذا قول البصريين. وقيل من الوسم، وهو قول الكوفيين. وعليه فالأصل في الاسم أنّه رفعة وعلامة. وتستخدم الأسماء لتمييز الذوات عن غيرها، ويغلب أن تشير الأسماء إلى صفات، ومن هنا يميل الناس إلى اختيار الأسماء ذات الدلالات الإيجابية، وهم يأملون أن يكون للمرء من اسمه نصيب.

المستقرئ للقرآن الكريم يجد أن الاسم يدل على صفة، وأسـماء ا تعالى كلها تدل على صفاته عز وجل. وعليه يكون المعنـى فـي قوله تعالى: " **هل تعلمُ له سميا**": أي هل تعلم له مثيلا في صفاته. وقد أخطأ من ظن أن أسماء ا مجرد أعلام، فقال إن معنى " **هل تعلمُ له سميا** ": أي هل تجد من تسمى باسمه. وهذا غير مقبول، لأن هنـاك من تسمى برحمن، ورحيم، وكريم...الخ

جاء في سورة الرعد:" **وجعلوا شركاء قُل سموهم** ". يقـول السمين الحلبي، في عمدة الحفاظ:" ليس المعنى أظهروا أساميها فقولوا : اللات، والعزى، وهبل، ونحو ذلك، وإنما المعنى أظهروا حقيقة ما

يدعون فيها من الإلهية. وإنكم تَجدون تحقيق ذلك فيها؟ " ويقول فـي قوله تعالى: **تبارك اسم ربـك**: " أي يتزايد خيرهُ وإنعامه. والمعنى أن البركة والنعمة الفائضة في صفاته..."

جاء في سورة الصف: " **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسـمه أحمد...**": أي أن صفاته، عليه السلام، تستجاب الحمـد فـي أقـوى صوره، وأجلاها، وأفضلها. فهو إذن يُحمدُ أكثر من غيره، لأن صفاته تجعله يُحمد من الناس أكثر. أما ( **محمد)** فـدال علـى كثـرة حمـد الحامدين إياه. وعليه فإذا قصدنا **بالاسم** الصفة الذاتيـة، التـي تـدفع الناس إلى حمده، عليه السلام، فهو **(أحمد)**، أما إذا نظرنا إلى ردة فعل الناس عندما يصفونه، عليه السلام، بما يليق بصـفاته، فإنّـه يكـون عندها **محمداً**. فهو، عليه السلام، **أحمد** في ذاته، **ومحمد ومحمودٌ** من قبل الناس.

ونقول بعبارة أخرى : المقدمات الموجودة فـي ذاتـه، عليـه السلام، يلخصها اسم أحمد، أما النتيجة الموجودة خارج الذات فيعبـر عنها اسم محمد.

لقد اشتهر النبي، صلى ا عليه وسلم، قبل الإسلام بأنّه الصـادق الأمين، وكانت هذه الشهرة نتيجة لما لمسته قريش من صِدقه وأمانته، عليه السلام، أما اليوم، وبعد أكثر من ألفٍ وأربعمائةِ سنة، فإننا نجـد أن الشخصية التي تُمتدح أكثر، وذلك لما يتجلى فيهـا مـن صـفات

حميدة، هي شخصية الرسول، عليه السلام، فهو أحمد من غيره على مدى التاريخ البشري وإلى يومنا هذا. فتبشير عيسى، عليـه السـلام، كان برسول يأتي من بعده، صفته أنّه أحمد من غيره.

بعد كل ما ذكرناه نخلص إلى نتيجة أنّه لا بد لنا من إعادة النظر في التعامل مع الأسماء القرآنية. فهل يجوز لنا أن نعتبرهـا مجـرد أعلام تخلو من المعاني والأسرار، وعلى وجه الخصـوص عنـدما تكون التسميات ربانية المصدر؟! انظر قوله تعالى :" **اسمه المسـيح عيسى ابن مريم** ". ثم انظر قوله تعالى:" **إنا نبشـرك بغـلام اسـمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** " وانظر قولـه تعـالى:" **فبشـرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب** ". ويعقوب، عليه السلام، هو أيضاً في القرآن الكريم إسرائيل، كما أن يونس، عليه السلام، هو أيضاً ذو النون، وإدريس، عليه السلام، فيما يرجحه بعض المفسرين هو إلياس، ومحمد، عليه السلام، هو أحمد.

هذه الأسماء وغيرها هي كنوز وأسرار، ونحن نهدف، بمثل هذا المقال، إلى لفت الانتباه إليها، لتصبح في دائرة اهتمام الدارسين، لأننا وجدنا أن الكثير من أسرار هذه الأسماء تتجلّى عند التحقق والمتابعة. ولا بأس بالرجوع إلى اللغات السامية، بعيداً عـن علمـاء التـوراة والكتاب المقدس، الذين يُطوعون اللغة لتوافق تصورات كَتبة أسـفار العهد القديم، حتى عندما يجمح بهم خيال الأسطورة.

# ســورة

القرآن الكريم هو المعجزة الدالة على صدق رسالة الرسـول، صلى الله عليه وسلّم، وعلى وجه الخصوص في إعجازه البياني. وقد تحدى القرآن العرب أن يأتوا بسورة من مثله، ولم يتحدهم بما هو أقل من سورة. والسورة كل متكامل وتشتمل علـى ألـوان مـن العلـوم والمعارف والتشريعات والآداب ... وغير ذلك. واللافت للانتبـاه أن كلمة **سورة** لم تُذكر في أول خمسين سورة نُزلت على الرسول، عليه السلام ؛ فقد جاء التحدي بعشر سور في سورة هـود، والتـي هـي السورة **52** في ترتيب النزول. أما التحدي بسورة واحدة فقد جاء في سورة يونس، والتي هي السورة **51** في ترتيب النزول. وهذا يعني أن العرب، في زمن الوحي، قد أَلِفَت معنى قرآن قبل أن تـألف معنـى سورة. وهناك الكثير من السور القصار التي نزلت قبـل أن يُسـمي القرآن الكريم كل قطعة متكاملة باسم سورة. ويجدر أن نلفت الانتبـاه هنا إلى أن ما يقال في ترتيب نزول السور هو من الأمور الاجتهادية المحتملة التي يصعب إثباتها، على خلاف ترتيب المصـحف، فإنـه ترتيب توقيفي، أي بفعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحياً.

**السورة**: مشتقّة من السور. ومعلوم أن السور في القديم كان يحيط بالمدينة، ثم هو يرتفع كثيراً بغرض الحماية والحفظ. وقد يكون معنى الارتفاع في السور ولّد في اللغة بعض معاني سورة، والتي منها **الدرجة الرفيعة والمنزلة العالية**. يقول النابغة الذبياني في البيت المشهور :

ألم تر أن ا أعطاك سورةً          ترى كلّ ملك دونها يتذبذبُ

ومعلوم أن بناء السور يتم دورة فوقها أخرى، حتى يكتمل. ولا يبعد أن تكون السورة هي كل **دورة** من هذه الدورات. ويُرجح هذا أن بعض علماء اللغة قال إن سورة تُجمع على **سُور**، وكذلك **سُوْر**. وعليه فإن اسم سورة يتضمن معنى **الإحاطة**، ومعنى **السمو والرفعة**. ومعنى الإحاطة يتضمن **الاشتمال، والتمييز وتحديد المعالم** ؛ فالسور يشتمل على المدينة وما فيها، ثم هو يحدد معالمها ويميزها عما سواها. واللافت للانتباه أن الآية الكريمة التي تتحدى البشر أن يأتوا بسورة: " **أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون ا إن كنتم صادقين** " يأتي بعدها مباشرة: " بل كذبوا بما **لم يحيطوا** بعلمه..."؛ فسور القرآن الكريم **تحيط بعلوم شتّى، وهي تسمو وترتفع، وهي تحفظ وتقي**. ونحن هنا سنركز فقط على كون السورة محددة المعالم.

القرآن الكريم **114** سورة، لم تتجاوز أطـول سـورة فيـه **24** صفحة، على اعتبار أن كل صفحة تتألف من **(260)** كلمة، في حـين كانت أقصر سورة تتكون من **(10)** كلمات فقط. وباقي السور تتراوح بين ذلك. وتتكون كل سورة من عدد من الآيات، بحيث يكون متوسط عدد كلمات الآيات هو: **(4، 12)** كلمة. ويغلـب أن تَقصُـر السـور والآيات التي نزلت في المرحلة المكية، والتي ركّـزت أكثـر علـى الجانب العقائدي. وتطول السور والآيات التي نزلـت فـي المرحلـة المدنية، وعلى وجه الخصوص عندما يكون الكـلام فـي الشـريعة والأحكام.

**ومن هذا نستنتج :**

أولاً: عندما نُخاطب الناس في أمور العقيدة فيحسن أن نوجز ونحـدد بما يشبه أسلوب الشعارات، بعيداً عن التطويل والإسهاب المسـتخدم لدى الفلاسفة.

ثانياً: الإكثار من الفُصول، والأبواب، والفقرات، يساعد على الفهـم، ويجذب القارئ بشكل أفضل، ويُبرز الأفكار من خلال تحديدها فـي إطار يفصلها عن غيرها بفاصل محسوس.

ثالثاً: الإطار العام دون تبويب يعطي فكرة كليـة مـع شـيء مـن الغموض في الأجزاء والتفاصيل. وأسلوب التسوير، والتقسـيم إلـى

آيات، يساعد كثيراً في إدراك الجزء، فيؤدى ذلك إلى إدراك الكل بشكل أوضح وفهم أعمق.

رابعاً: هناك علاقات بين السور تشبه العلاقة بين كل دورة وأخرى في بناء السور حتى يكتمل. ولا يسهل إدراك العلاقة بين سورتين متلازمتين في المصحف حتى ندرك معاني كل واحدة منهما. والمفسر المتمرس في معاني القرآن الكريم بكامله هو الأقدر على إدراك العلاقات بين السور والآيات. ومن هنا نجد أن علم التناسب بين الآيات والسور جاء متأخراً عن علم التفسير.

# سليمان عليه السلام

تكرر اسم **سليمان**، عليه السلام، في القرآن الكريم **17** مرة، واللافت للانتباه أن القرآن الكريم لم ينص على أية علاقة لسليمان، عليه السلام، ببني إسرائيل، ولا بد من دلالة لهذا السكوت. نعم، فالقرآن الكريم قد نص على نبوة سليمان، عليه السلام، وكونه ملكاً، ولكنه لم يذكر شيئاً عن قومه، ولا عن الأقوام والأمم التي تبعته وآمنت به، عليه السلام، وانضوت تحت لوائه، فكانت من رعاياه. بل إن في قصة ملكة سبأ لدلالة واضحة على اتساع ملكه وتعدد الأمم التي استجابت لدعوته. فلم يكن، عليه السلام، ملكاً لليهود، كما يعتقد الكثير من الناس متأثرين في ذلك بكتب العهد القديم.

ورد ذكر سليمان، عليه السلام، باستفاضة في سفر الملوك الأول، والذي يقال إنه قد دون في القرن السادس قبل الميلاد، في حين يقال إن سليمان، عليه السلام، قد مات في القرن العاشر قبل الميلاد. ووردت قصته مفصلة أيضاً في سفر أخبار الأيام الثاني، والذي يقال إنّه قد دون في القرن الخامس قبل الميلاد. ولا يستطيع المسلم أن يصدق الكثير مما ورد في هذه الأسفار؛ فصورة سليمان، عليه السلام، في القرآن الكريم في غاية السمو والجمال، أما هذه الأسفار

فتزعم أنه - وحاشاه- قد عبد الأصنام إرضاء لزوجاته الوثنيات. انظر هذا النص من سفر الملوك الأول: " فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه ضلّ عنه، مع أنّه تجلّى له مرتين، ونهاه عن الغواية وراء آلهة أخرى، فلم يطع وصيته، لهذا قال ا لسليمان: لأنّك انحرفت عني ونكثت عهدي، ولم تطع فرائضي التي أوصيتك بها، فإني حتماً أمزق أوصال مملكتك، وأعطيها لأحد عبيدك، إلا أنني لا أفعل هذا في أيامك ..." أما صورته عليه السلام في القرآن الكريم فيكفيك ما جاء في سورة ص: " **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنّه أواب** ".

يبدو أن ملك سليمان، عليه السلام، كان يشمل عدداً من الأمم التي اتبعت دينه الحق، وانضوت تحت لوائه، وهذا ما جعل المنحرفين من بني إسرائيل يحقدون على هذا النبي الصالح، لأنهم يريدونها مملكة عنصرية، تجعل من اليهود سادة يُسخّرون الشعوب لخدمتهم، ثم هم يريدونها يهودية تتناقض مع نبوة سليمان وإسلامه : " **وأسلمت مع سليمان لرب العالمين** ". فليس غريباً إذن أن يشوه اليهود سيرة هذا النبي الصالح، ويصبوا عليه جام غضبهم، حتى عندما كتبوا قصته بعد وفاته بخمسمائة سنة. ومن يتدبر النص الذي اقتبسناه من سفر الملوك الأول يلاحظ أنّهم يحقدون عليه وينقمون من فترة ملكه، ويجعلون الرب غاضباً منه، ومقرراً أن يدمر هذا الملك. وإذا صح ما ورد في أخبار الملوك الثاني فإن الأمر يصبح واضحاً؛ فهذا سليمان، عليه السلام، قد أذلهم، وكذلك فعل ابنه رحُبعام من بعده. ويصبح

الأمر أشد وضوحاً عندما نعلم أنّهم قد شقّوا الدولة بعد وفاتـه، عليـه السلام، بأيام.

تدبر هذا النص الوارد في أخبار الملوك الثاني، والذي إن صح يكون دليلاً آخر على أن سليمان، عليه السلام، لم يكن ملكاً لليهود فقط، بل هو نبي صالح وملك عادل، يحارب العنصرية ويقمع المنحرفين: " فجاء يربعام وكل جماعة إسرائيل وقالوا لرحبعام بن سليمان: إن أباك قد أثقل النّير علينا، فخفف أنت الآن من عبء عبودية أبيك وثقل نيره الذي وضعه علينا فنخدمك. فأجابهم بعد أيام قائلاً: أبي أثقل عليكم النير وأنا أزيد عليه. أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب". فكان أن تمردوا، وشقّوا عصا الطاعة، وشقّوا الدولة. ويبدو أن ذلك كان بداية فسادهم وعلوهم، المنصوص عليه في القرآن الكريم: " **لتُفسِدُن في الأرض مرتين...**". فقد أرادوها عنصرية غاشمة، ويهودية متسلطة، وكان منهم ما أرادوا، فتحقق فيهم وعد ا الأول. وفي القرن العشرين كان مكرهم الثاني، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

# الزبـور

ورد في السنّة الصحيحة أن ا ، سبحانه وتعالى، أنزل التوراة على موسى، عليه السلام. ولكن اللافت للانتباه أن القرآن الكريم لـم ينص صراحة على ذلك. ومعلوم أن ا تعالى أنزل الإنجيل علـى عيسى، عليه السلام، وقد نص القرآن الكريم على ذلك. والمشهور أن ا تعالى قد أنزل **الزبور** على داود، عليه السلام، فهل نص القـرآن الكريم على ذلك ؟!

المستقرئ لآيات ا الكريمة يجد أن القرآن الكريم قد نص فـي موضعين فقط على أن ا تعالى آتى داود، عليه السلام، **زبوراً**، ولـم ينص على إيتائه **(الزبور)**. جاء في الآية **163** من سورة النسـاء: " **وآتينا داود زبوراً** ". وجاء في الآية **55** من سورة الإسراء: " **وآتينا داود زبوراً** ". أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: " **ولقـد كتبنـا فـي الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ". فلا دليل على أن المقصود هو زبور داود، عليه السلام. ومن يرجع إلى كتـب التفسير يلاحظ اختلاف المفسرين حول المقصود بالزبور في سـورة الأنبياء.

قال تعالى في الآية 25 من سورة فاطر: " **وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير** ". نستفيد من هذه الآية الكريمة أن **الزبر**، والتي هي جمع زبور، نزلـت على الرسل. ويستفاد أيضاً أن الزبر تحمل معنى يختلف عن معنـى الكتب. وقد نص العلماء على أن الزبور هو الكتاب، وأن الزُبُر هـي الكتب. وهذا صحيح، لأن **الزُبُر** هي فعلاً كتب نزلـت وحيـاً علـى الرسل، ولو كانت الزبر لغةً ترادف في معناها الكتب لاستشكلنا قوله تعالى: " **وبالزبر وبالكتاب المنير** ". من هنا قد يجدر بنا أن نبحث عن معنى الزبر في القرآن الكريم.

جاء في الآية 53 من سورة المؤمنين: " **فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُرا، كل حزب بما لديهم فرحون** ". وجاء في الآية 96 من سـورة الكهف: " **آتوني زُبر الحديد...** ". أي: قِطع الحديد. وهذا يعنـي أن **الزبْر**: هو التقطيع، وأن **الزُبرة**: هي القطعة، وجمعها **زُبـر**. وعليـه يمكن أن نقول إن **الزبور**: هو كتاب اقتطع من غيره من الكتـب، أي أن هناك احتمالاً أن يكون الزبور جزءاً من كتاب رباني سبق نزوله، أو جزءاً من كتاب سينـزل، فكان الكل كتابا، والجـزءُ قطعـةً أي: **زبوراً**.

الخلاف بين أهل السنّة والجماعة، وبين المعتزلة، فـي القـول بخلق القرآن مشهور، ومعلوم أن أهل السـنّة والجماعـة يـرون أن

القرآن الكريم هو من كلام ا  تعالى، والكلام صفة المتكلم، والمـتكلم أزلي غير مخلوق. وعليه يكون القرآن أزليا غير مخلوق. وهذه مسألة يجدر بنا ألا نثيرها، في عصر تجاوز فيـه الإنسـان المسـلم هـذه الجدليات، ولكن دفعنا إلى هذه الإشارة الرغبة في التذكير بأن القرآن الكريم هو في اللوح المحفوظ قبل نزوله على الرسول، صلى ا  عليه وسلّم: " **إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ...**". وهذا يعني أن الأسبقية التاريخية في النزول لا تدل على الأسبقية في اللوح المحفـوظ، وأن أسبقية النزول لا تعني أسبقية الكتابة. وبهذا الفهم قد يـزول بعـض الإشكال في فهمنا لقوله تعالى من سورة الأنبياء: " **ولقد كتبنـا فـي الزبور من بعد الذكر ...**". فمعلوم أن **الذكر** مُعرفا في القرآن الكـريم لم يرد صريحا في أي من الكتب المنزلة سوى القرآن الكريم.

جاء في الآيات: **(192-196)** من سـورة الشـعراء: " **وإنّـهُ لتنزيلُ رب العالمين، نزلَ به الروحُ الأمينُ، على قلبك لتكـون مـن المُنذِرين، بلسانٍ عربي مبين، وإنّهُ لفي زُبُر الأولين** ". فكيف يكون القرآن الكريم في كتب الأولين ؟! هل المقصود أن الكتب السابقة قـد بشّرت بنزول القرآن الكريم، أم أن المقصود هو معاني القرآن الكريم دون الألفاظ، أم أن المقصود المعاني والألفاظ جميعاً ؟

هذه مسألة خاض فيها العلماء، والذي قصدنا إليه من هذا المقال أن نلفت الانتباه إلى احتمال أن يكون قد تنـزل بعض القرآن في كتب

الرسل السابقين، فأوتي كل رسول جزءاً، أي **زبوراً**، حتى جاء الوقت المعلوم لنزول القرآن الكريم كاملاً للبشرية جمعاء. ويصبح الأمر مستحقاً للبحث عندما نقرأ الحديث الصحيح الوارد في البخاري: " **خُفّف على داود القرآن، فكان يأمرُ بدوابه فتُسرج، فيقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دوابه ...**". والحديث الوارد في مسند أحمد: " **ألا أُعلمك خير ثلاث سور أُنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم، قال: قلت بلى ...** ". وقد جاء هذا المعنى في أكثر من حديث شريف.

خُتِمت سورة الأعلى بقوله تعالى: " **إن هذا لفي الصُحُفِ الأولى، صُحُفِ إبراهيم وموسى** ". والأصل أن نأخذ بظاهر النص فنقول: إن ما ذُكر في السورة الكريمة كان قد تنزل في صحف إبراهيم وموسى، عليهما السلام. ويعزز هذا ما جاء في سورة النجم، ابتداء من الآية 36: " **أم لم يُنبأ بما في صُحفِ موسى، وإبراهيم الذي وفّى...** ". وإذا أردتَ أن تعلم ما جاء في هذه الصحف فاقرأ الآيات الكريمة حتى نهاية السورة.

# الصرح

جاء في بعض كتب اللغة أن **الصرح**: هو القصر، وكل بنـاء عالٍ مشرف. ولكن لماذا سُمي القصرُ قصرا، ولمـاذا سـمي البنـاء المشرف صرحاً ؟. يبدو أن الصرح مأخوذ من **الصراحة**، والتي هي خلوصٌ من الشوائب. والصراحة فيها وضوح. وإذا صرح الإنسـان بالشيء فقد كشفه وأظهره. ونظراً لوضوح القصر والبناء العالي سمي صرحا. من هنا لا ينحصر مُسمى الصرح في البناء العالي المشرف، ولا ينحصر في البناء الضخم الظاهر في الحس. وقـد وردت كلمـة الصرح في القرآن الكريم أربع مرات؛ في سورة النمل عند الحـديث عن سليمان، عليه السلام، وملكة سبأ، وفي سورة القصص وغافر.

جاء في سورة القصص على لسان فرعون: " **فَأَوْقِدْ لِـي يـا هامانُ على الطين فَاجْعَلْ لِي صرْحاً لعلي أَطلِعُ إلى إلهِ مُوسى وإني لأظُنهُ مِن الكَاذِبين** ". وقد تكرر هذا الطلب في سورة غافر:" **وقَـالَ فِرْعوْنُ يا هامانُ ابْن لِي صرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسْباب، أَسْباب السماواتِ فَأطلِع إلى إلهِ مُوسى وإني لأظُنهُ كَاذِبـاً**..." هـل بلغـت السـذاجة بفرعون أن يطلب بناءاً عالياً يرقاه لينظر ويتحقق مـن وجـود إلـه موسى؟! وهل يتصور فرعون أن المستمعين لـهُ مـن المـلأ بهـذه

السذاجة أيضاً ؟! ما الذي يمنع أن يكون ما يطلبه فرعون أكثر جدية مما يتبادر إلى الذهن؟ ثم لماذا يبني فرعون هذا الصرح مـن طـينٍ يُطبخ، وهناك ما هو أفضل من الطين لبناء صرحٍ ضخم يتطاول في السماء؟! فلماذا لا يكون هذا الصرح من الحجارة، وقد عرف الفراعنة بناء الأهرامات الضخمة؟! ثم ألم يصعد فرعون في حياتـه الجبـال العالية ليدرك أن أعلى بناء ممكن هو أقل ارتفاعاً من جبل صغير ؟!

من يدرس تاريخ الفراعنة يجد أن لهم السبق في تحديد السـنة الشمسية بمقدار **365** يوما، وتقسيم السنة إلى **12** شهراً، والشـهر**30** يوما، واليوم **24** ساعة. بل إن بناء الأهرامات له علاقة بأبعاد فلكية، وقد بلغت الدقة الهندسية لديهم بحيث أن الشمس تدخل الغرفةً الملكية مرة في العام، وذلك في اليوم المحدد والساعة المحددة. من هنا ندرك أن فرعون كان يريد بناء **مرصد** يساعده فـي فهـم حقـائق البنـاء السماوي. ويبدو أن استخدام الزجاج في هذه المراصـد كـان هـو الأساس في عمل المرصد، كما هو مفترض. على ضوء ذلـك نفهـم طلب فرعون: " **فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ على الطين فَاجْعَلْ لِي صرْحا..**". فالأقرب إلى التّصور الجاد أنّه يريد صناعة الزجاج، لبناء مرصـد، فهو لا يحتاج إلى بناء عال ليرتقيه، فلديه الأهرامات التي بُنِيت قبـل عصره. ومعلوم تاريخياً أن الفراعنة قد عرفوا المراصـد، وراقبـوا السماء، وبلغوا في ذلك مبلغاً.

أما آيـة سورة غافر: " **وقَالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صرْحاً لعلي أَبلُغُ الأسْباب، أَسْباب السماواتِ فَأَطلِع إلـى إلـهِ مُوسـى..**".

فالمتصور أن يكون هذا في عالم الرصد والمراصد أكثر مما يُتصور في عالم الارتقاء إلى أعلى، وعلى وجه الخصوص عنـدما نعلـم أن الأمم القديمة قبل الميلاد كان لها سبق في علم الفلـك. وقـد كـانوا يعتقدون أن للأفلاك تأثيراً وتَحكماً، حتى في مصائر البشر. وبالتـالي فإن العلل والأسباب الحقيقية عندهم هي في عالم الفلك. وفرعون هنا يريد أن يبلغ عالم الأسباب هذا ليطلّ منه بزعمه على حقائق الكـون، ومنها حقيقة أن موسى، عليه السلام، هو رسول من ا . وهو بـذلك يستخدم علم **التنجيم** لينفي أن يكون موسى، عليه السلام، مرسلاً مـن ربه. وقد لمح فرعون إلى ذلك بقوله: " **وإني لأظنّه كاذبا**". وعدم جزم فرعون هنا من أجل أن يظهر نفسه بمظهر الإنسـان الموضـوعي، الذي يبحث عن الدليل والبرهان.

إذا صح فهمنا هذا، فإن ذلك يدعونا إلى إعادة النظر في فهـم كلمة الصرح التي وردت في سورة النمل؛ فقد كانت ملكة سبأ ممـن يعبدون الشمس، كما صرحت الآيات الكريمة، وهذا يشير إلى احتمال أنّهم كانوا يهتمون بالفلك أيضا. لقد وجدنا ملكة سبأ تصر على دينها، حتى عندما تجلّت أمامها معجزة إحضار العرش، فكـان لا بـد مـن مناقشتها في عقيدتها، وتعريفها بحقيقة الشمس والأفلاك التي تعبـدها. من هنا يحتمل أن يكون دخولها الصرح هو دخولٌ للمرصد الزجاجي

الضخم، من أجل تعريفها بواقع الأفلاك، ومناقشتها في عقيدتها؛ فهي مُهيأة لمثل هذا العلم: " **قِيلَ لَها ادْخُلِي الصرْح فَلَما رأَتْهُ حسِبتْهُ لُجةً وكَشَفَتْ عنْ ساقَيْها قَالَ إِنهُ صرْحٌ مُمردٌ مِنْ قَوارِير**..". نعم فهو من زجاج مُملس، وهو شفّاف وخالص من الشوائب، فهـو إذن صـرح، وهو أيضاً قوارير. ويبدو أن عظمة هذا المرصد تتجلّى في انعكـاس الأجرام السماوية في قاعدته الزجاجية، وظهر ذلك في ردة فعل ملكة سبأ، عندما كشفت عن ساقيها. ولا ندري كم اسـتغرق مـن الوقـت وجود ملكة سبأ داخل المرصد، ولكن يبدو أن هذا التواجد هو الـذي جعلها تُعلن إسلامها: " **قَالَتْ رب إِني ظَلَمْتُ نَفْسِـي وأَسْـلَمْتُ مـع سلَيْمان لِلهِ رب الْعالَمِين**". ويبدو أنّه قد تم تعريفهـا بحقيقـة عـالم الأفلاك، الذي كانت تعبد من دون ا . ولا شك أن النقلة في المعارف تساعد على النقلة العقائدية. وتسمية المرصد صرحاً مفهوم إذا عرفنا أن المرصد: **يكشف، ويُجلّي، ويُظهر،** ثـم إن عدسـاته وملحقاتهـا مصنوعة من **الزجاج الخالص الصريح**، ثم هو يُبنى **في مكان عـالٍ ومشرف.**

# الصافنات الجياد

جاء في سورة ص: " **ووهبنا لداود سليمان، نعـم العبـدُ إنـه أواب، إذ عُرض عليه بالعشي الصافناتُ الجياد...**".

تصف الآية الكريمة الخيل بأنّها صافنات، وبأنها جياد. واللافت أن الصفة الثانية هي نقيض للصفة الأولى؛ فمعلوم أن الخيـل عنـد راحتها تكون قائمة لا تتحرك، بل تنام وقوفا، وصمتها فيـه هـدوء ووقار، فأنت تعجب من هذا الحيوان الـذي يمضـي حياتـه واقفـا، وتعجب كيف ينام واقفا، وتعجب كيف لا يرهقه الوقـوف! ويـزول العجب عندما نعلم أن القانون في خلق الخيل، يختلف عنه في خلـق الإنسان، وخلق الكثير من الحيوانات التـي تنـام مسـتلقية، فراحـة الحصان في وقوفه. والهدوء العميق لهذا الكائن، وصمتُهُ ووقاره، كل ذلك هي المقدمات الضرورية التي تُفجر حيويته ونشاطه.

نعم إنّه الجواد الذي يجودُ بالحركة، ويفيضُ بالنشاط. وينـدر أن نجد في الحيوانات حيواناً يماثله في هذه المتناقضات؛ فهـو السـاكنُ المتحرك، والصامتُ المتفجر.

آية في سورة **ص**، جاءت عقب الآيات سالفة الـذكر، لا تـزال لغزاً على الرغم من أقوال المفسرين الكثيرة فيها: " **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كُرسيه جسداً ثم أناب**". وليس هذا مقـام الإفاضـة فـي تفسيرها، وأكثر ما جاء فيها من تفسير لا يستند إلى دليل معتبر. وقد يكون الأقرب إلى الصواب أن نقول: بأن الجسد الذي حلّ في كرسي المُلْك هو سليمان، عليه السلام. وقُلنا (حلّ) لأننا وجدناها أليق بمقـام سليمان، عليه السلام. ومن لطائف القرآن الكريم أن يقـول سـبحانه وتعالى: " **وألقينا على كرسيه**"، ولم يقل: " **وألقيناه على كرسيه**". هذا إذا كان المقصود سليمان، عليه السلام؛ لأن كلمة **ألقيناه** تفيد الإلقـاء مع النبذ على خلاف ألقينا. والذي يبدو لنا راجحاً هو احتمال أن يكون سليمان، عليه السلام، قد أصيب بمرض أقعده عن الحركة، أو تحول إلى جسد ساكنٍ لا حراك فيه، واستمر على هذه الحال مدة من الزمن، ثم شفاهُ ا وعافاهُ مما حلّ به، عليه السلام. وقد يعزز هذا القـول أن الآيات التي تلي هذه القصة جاءت على ذكر أيوب، عليه السلام، وما حلّ به من بلاء: " **واذكر عبدنا أيوب إذ نـادى ربـهُ أنّـي مسـنِي الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب** ". ويعززهُ أيضاً قوله تعالى: " **ثـم أنـاب** "، لأن من معانيه أنّهُ رجع إلى حالة الصحة والمعافاة. واستخدام ثُم التي هي للتراخي يؤكّدُ ذلك؛ لأن سرعة الإنابة، التي فيها معنـى التّوبـة، هي من مستلزمات صفة الأواب التي وصف بهـا سـليمان، عليـه

السلام. وهذا يعني أن الإنابة هنا لا علاقة لها بالرجوع إلى ا ، بـل الرجوع إلى الصحة والمعافاة بعد وقتٍ فيه طول.

المدة الزمنية التي يُحتمل أن يكون سليمان، عليه السلام، قضاها فاقداً للقدرة على الحركة، والقدرة على إدارة شؤون الدولة، لا بُـد أن تكون فرصة للتدبر والتأمل، وإعادة النظر في أمر المُلْك والسـلطان، والنظر فيما يمكن أن يفعله الحاكم الذي يملك الجاه والسلطان والقوة. ويمكننا أن نتصور الأماني والأمنيات التي تجول فـي خـاطر مـن فقد القدرة على الإدارة والحكم، وهو لا يزال على كرسـيه سـلطاناً معترفاً به. إن هـذه اللحظـات الجليلـة تجعـل المـرء يـدرك أن الحوْل والطَوْل كله . ومن يمر من الصالحين بمثل بهذه التجربة لا يمكن أن يغتر بالقوة والسلطان، وعلى وجه الخصوص عندما يكـون أواباً منيباً تعالى.

من يقرأ الآيات التي تلي هذه الآية يجـدها مفعمـة بالحركـة، والقوة، والتسخير، والعطاء الوفير. ويجد سلطاناً يُعطى من كل شيء، ثم هو لا يحاسب: "**هذا عطاؤنا فامنن أو أمسـك بغيـر حسـاب**". والمتدبر للآيات يجد أن سليمان، عليه السلام، قد انتقل من النقـيض إلى النقيض، تماماً كحالة الصافنات الجياد؛ فسكون تلك الصافنات هو المقدمة الضرورية للحيوية المتفجرة، والحركة الفعالة. وقد لاحظنـا هذا في حالة سليمان، عليه السلام، بعد شفائه من مرضه؛ فقد أصـبح

سلطاناً يوظّفُ كل ما سُخّر له من أجل رعيته، ومن أجل الحقيقة التي يؤمن بها، وقد بلغ عهده في الحضارة والمدنية الأوج، إلى درجـة أن نجد الأمم التي جاءت من بعده تنسب كل شيء خارق وعظـيم إلـى عصره، عليه السلام. فإذا كانت حالة الصفون في الخيل هي المقدمـة الضرورية لحالة الجود، فإن حالة سليمان، عليه السلام، في سـكونه على كرسيهِ كانت المقدمة لإطلاق طاقاته الفاعلة، الموهوبة له من ا تعالى، لإحداث نقلة عظيمة في حياة البشر، وتكون على يديه، عليـه السلام، تكريماً له.

# الإيمان

الإيمان هو التصديق، ولكنه التصديق الذي معه أَمْن. والإيمان في الدين يحقق الأمن الفردي والجماعي، الدنيوي والأخروي. وأنّى لغير المؤمن أن يحس بالأمن ؟! لقد استعاض العلماء في فترة ما عن هذه اللفظة (الإيمان) بلفظة (العقيدة) والتي تدل على الجزم في التصديق. وتبقى لفظة (الإيمان) هي اللفظة التي نص عليها القرآن الكريم، والسنّة الشريفة.

يأخذ الإنسان المعرفة إما عن طريق العقل؛ كالمبادئ الرياضية. وإما عن طريق الحس؛ كالألوان. وإما عن طريق الخبر الصادق؛ كالمعارف التاريخية، والوحي الرباني. ولا يوجد طريق رابع معروف لأخذ المعرفة. أما الإلهام والرؤى الصادقة فهي من الخبر الصادق، وهو ما يُعرف في الدين بلمة الملَك. ويمكن إرجاع ما يُسمى بالتّخاطُر إلى حاسة مجهولة في الإنسان. وإذا ما استعرضنا أركان الإيمان في الإسلام نجد أن ركن الإيمان بالله تعالى يثبت عن طريق العقل فقط. وأما ركن الإيمان بالملائكة فثبت عن طريق الخبر الصادق (الوحي). وأما ركن الإيمان بالكتب فثبت عن طريق العقل، إذا كان المقصود القرآن الكريم، أما إيمان المسلم بالتوراة والإنجيل فيكون عن طريق

الخبر الصادق، وكذلك الأمر في ركن الإيمان بالرسل؛ فإذا كان المقصود الإيمان برسالة محمد، صلى ا عليه وسلّم، فلا يكون ذلك إلا عن طريق العقل، ومن هنا كانت المعجزة. وأما إذا كان قصدنا الإيمان بباقي الرسل فيكون ذلك عن طريق الخبر الصادق، والذي هو هنا الوحي الثابت بالعقل. أما ركن الإيمان باليوم الآخِر، وركن القضاء والقدر، فيثبتان عن طريق الخبر الصادق.

على ضوء ما سلف نجد أن أركان الإيمان في الإسلام لا تثبت إلا من طريقين؛ العقل والخبر الصادق. أما الحس فليس من طرق إثبات القضايا الإيمانية، لأن الإيمان يتعلق بالمسائل الغيبية، ولا يتعلق بالمحسوسات؛ فالمعارف التي تؤخذ عن طريق الحس لا يتعلق بها إيمان. فلا نقول: نؤمن بوجود اللون الأحمر، مثلا. ولا نقول نؤمن بأن النار تحرق، وبأن الماء يروي ...الخ. وبذلك يتبين لنا خطأ من ينكر بعض القضايا الإيمانية بذريعة أنها غير محسوسة، لأن الحس هو طريق من ثلاث طرق تؤخذ بواسطتها المعرفة، وكل طريق يقودنا إلى معرفة تختلف تماماً عن المعارف التي تقودنا إليها الطرق الأخرى. فمعلوم أنّه يستحيل على الأعمى، مثلاً، أن يدرك حقيقة الألوان، ولكنه يؤمن بوجودها عن طريق الخبر الصادق. فالألوان بالنسبة للمبصر هي قضية حسية غير إيمانية، وهي بالنسبة للأعمى قضية إيمانية غير حسية.

عُرف الإيمان الديني بأنّه: **ما وقر في القلب وصدقه العمل**.
وبهذا يظهر الفرق بين الإيمان الفلسفي والإيمان الديني؛ فالإيمان الفلسفي لا يستلزم سلوكا، ولا يوجب التزاما، أما الإيمان الديني فلا يصح حتى ينعكس سلوكا. فالدين لا يقبل أن يكون الإيمان ترفاً فكريا، بل إن الإيمان الذي لا يصدقه عمل يوشك أن يموت؛ فالفكرة كالجسد إذا لم تعمل تموت. ومن هنا ليس عجيباً أن نجد في الواقع أن أشد الناس إيماناً أشدهم التزاما، وأن قوة الإيمان تتجلى في الذين يتحركون بالفكرة.

# الغـيب 1

**الغيب**: هو كل ما غاب عن الحس، أو غاب عن العقـل. وفـي الوقت الذي يصبح فيه الشيء الغائب محسوساً، أو مُدركاً بالعقل، فإنه لا يعود بعدها غيباً. وما يغيب عن الإنسان قـد يكـون مـن أمـور الماضي، وقد يكون من أمور الحاضر، وقد يكون من أمور المستقبل. وقد فطر ا تعالى الإنسان على حب معرفة الغيب، فهو يسعى دائماً إلى كشف أستار الغيوب. ومن الممكن أن نُرجع تطـور المعـارف والعلوم إلى شوق الإنسان الدائم إلى معرفة ما غاب عـن جِسـمِهِ أو عقله. وقد يدفعه هذا الشوق الجامح إلى سلوك بعض الطرق العابثـة، والتي تُهدر وقته وجهده، وتضره ولا تنفعه. من هنا وجدنا أن الـدين يُحرم العرافة والكهانة، والشعوذة، لأنها تَصْرِف الإنسان عن الطرق الصحيحة لمعرفة الغيب.

لا يدخر الإنسان جهداً في اتخاذ الوسائل المختلفة الموصلة إلـى معرفة الغيب، وفي الوقت الذي ينجح فيه في كشف أستار غيبٍ مـا، يتحول هذا الغيب إلى شهادة، ولا يعود غيباً بالنسبة له، وإن كـان لا يزال غيباً بالنسبة إلى غيره من الناس. وسيبقى الإنسان يتوسل بعـالم الشهادة للاطلاع على عالم الغيب، في مسيرة لا تتوقف حتى تنتهـي

خلافته على الأرض. ولا يقتصر عالم الشهادة على المحسوسات، بل إن ما يثبت **بالعقل** هو أيضاً من عالم الشهادة، وعليه فإن وجود الخالق، سبحانه وتعالى، هو من عالم الشهادة، وليس من عالم الغيب. وقد يكون هذا من بعض أسرار شهادة أن لا إله إلا ا .

يمكن للإنسان أن يتعرف على ما يغيب عنه عن طريق الحس، أو عن طريق العقل، أو عن طريق الخبر الصادق. وعندما نصف الخبر بأنّه صادق فإننا نقصد بذلك أنّه قام الدليل العقلي على صدق هذا الخبر. من هنا تتفاوت الأخبار في درجة صِدقيتها، وعلى ضوء هذا التفاوت يتفاوت التصديق قوةً وضعفاً. فعلى سبيل المثال: هناك الحديث الضعيف، والحسن، والصحيح، والمتواتر. فما جاءنا عن طريق الحديث الحسن لا يكون في قوة ما جاء عن طريق الحديث الصحيح، وما جاء عن طريق الحديث المتواتر فهو القطعي في ثبوته. والتواتر مسألة عقلية، وليست بمسألة شرعية.

كل الناس يؤمنون بالغيب، فما معنى أن يُثني ا تعالى، في كتابه العزيز، على المتقين أنهم: " **يؤمنون بالغيب** " ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إذا قام الدليل العقلي على صدق النبي فيما يُبلّغ عن ربه، فإن المؤمن عندها يُصدق ما جاء به النبي من أخبار تتعلق بعالم الغيب، حتى وإن كان الحس والعقل عاجزين عن إدراك هذا الغيب، لأن صدق المُخبر يغني عن ذلك.

يقول تعالى في الآية 26 من سورة الجن: "**عالمُ الغيبِ فلا يُظهر على غيبهِ أحداً، إلا من ارتضى من رسول**..." إن ا  تعالى لا يغيب عنه شيء، فعلمه مطلق. وعليه فما دلالة إضافة الغيب إليه سـبحانه وتعالى؟ تشير الآية الكريمة إلى غيب أراد ا  تعالى أن يُغيبـه عـن المخلوقات، وهذا يعني أن هناك غيوباً يمكن للخلق أن يُحيطوا بها إذا ما توصلوا إليها بالحس، أو بالعقل، أو بالخبر الصـادق. وإن هنـاك غيوباً لم يأذن سبحانه وتعالى بعلمها لأحد من المخلوقات. وقد يُستثنى من ذلك بعض الرسل والرسالات. فغيبهُ سبحانه وتعالى ليس كل مـا غاب عنّا، بل هو ما استأثر بعلمه دون خَلِقه. وهذا يعني أنه قد يكون بإمكاننا أن نطلع على بعض الغيوب إذا ما تدبرنا القرآن الكريم، الذي فيه خبر **ما** قبلنا، وعلم **ما** بعدنا.

وأخيراً نسأل: هل حُرم الناس من الاطلاع على الغيـب بخـتم النبوات والرسالات ؟ نقول: لا، لم يُحْرموا؛ فالرؤيا الصادقة هي نوع من إطلاع الإنسان على الغيب، وكذلك الإلهام. ولكن هـذا لا يتعلـق بالغيب الذي شاء ا  أن يُغيبه **(غيبه)**، بل هو مما أراد أن يُظهره. أما ما أراد أن يُغيبه، فقد شاء سبحانه وتعـالى أن يجعـل الـوحي هـو الطريق الوحيد للإطلال عليه. وعليه فهناك غيب يمكن الاطلاع عليه بواسطة الحس، أو العقل، أو الخبر الصادق، ومنه الإلهام والـرؤى. وهناك غيب لا طريق إليه إلا بتدبر الرسالة الإلهية، المتمثلة بالقرآن والسنّة.

# الغيب 2

نزلت سورة الإسراء قبل الهجرة بسنة. وجاءت الآية الأولى من السورة لتتحدث عن حادثة الإسراء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. ويدهشك أن الآيات التي تلي تتحدث في بعدٍ غيبي يتعلق بمسألة ستأتي بعد قرون، ألا وهي القضية الفلسطينية، وهذا يعني أن هذا الصراع المستقبلي سيشكل في حينهِ حدثا في غاية الأهمية بالنسبة للبشرية. ولا ننسى أن فلسطين هي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، كما جاء في سورة الأنبياء: " **ونجيناهُ ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ".

جاء في الآية الثالثة من سورة الإسراء: " **ذرية من حملنا مع نوح إنّه كان عبدا شكورا** ". وقد جاء في القرآن الكريم أن كلّ من حُمِل مع نوح، عليه السلام، كان مؤمناً. وعليه، فما هي الإشارات التي تحملها عبارة: " **ذُرية من حملنا مع نوح**..."، ولماذا لم تكن: " ذُرية **من آمن** مع نوح " ؟.

يمكن للمفسر أن يذهب في ذلك مذاهب شتى، ويبقى كلام الله فوق كلام كل حكيم، ولكننا هنا نُدلي برأي له ارتباط بواقع الناس المعاصر؛ فنوح، عليه السلام، بنى السفينة بأمر الله ووحيه، كما جاء

في سورة هود: " **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** " ويبـدو أن المكـان الذي صُنعت فيه السفينة كان بعيداً عن البحر، ويبدو أن كل ما يحيط بالمكان يجعل بناء نوح، عليه السلام، للسفينة أمراً مسـتغرباً داعيـاً للاستهزاء. جاء في سورة هود: " **ويصنع الفلك وكلما مر عليه مـلأ من قومه سخِروا منه** " وهذا أمر مفهوم، فهم لا يملكون البعد الغيبي ليدركوا الحكمة من بناء السفينة في ذلك المكان. وأنّـى لهـم ذلـك وعقيدتهم الوثنية ترهن عقولهم للواقع المحسوس.

واليوم نجد أن الأحداث في العالم تتسارع، والعواصف، التـي تعصف بالناس، تجعل الكثيرين في حالة من الحيـرة. وقـد يصـل البعض إلى حالة اليأس والإحباط، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين لا يملكون البعد الغيبي الذي تنـزلت به الرسالات؛ فالعقيدة الماديـة تأسرُ صاحبها في سجن عالم الشهادة الآني، ومن هنا تكون الأحكـام والمواقف والقناعات متأثرة بثقل وطأة الواقع المحسوس.

عندما أسقطت أمريكا حكم مُصدق فـي إيـران، وذلـك فـي الخمسينات من القرن العشرين، وأعادت الشاه إلى عرشه الملكي، كان ذلك في حينه نجاحاً ظاهراً. لكن أحداث العام **1979**م، وما بعـدها، جاءت لتثبت قصور عقول عباقرة السياسة الأمريكية، فـأنّى لهـم أن يدركوا أبعاد مكرهم، ونهاياته، ومآلاته ؟! نعم، يستطيع لاعب الكُـرة الماهر أن يقذف بالكرة إلى الهدف، ولكنّه يفقد السيطرة عليها بمجرد قذفها، ثم هو غير مُتحكّم بعد ذلك بمسارها، ولا يعلم مكـان وهيئـة

استقرارها. وهكذا نحن البشر، قد يكون لنا سيطرة على أفعالنا الآنية، فتأتينا النتائج الفورية والمرجوة. أما تفاعلات الأفعال ومآلاتهـا فـي المدى البعيد، فلا مجال للسيطرة عليها؛ فكلما طـال الزمـان فقـدنا السيطرة والتحكّم، وتكون مفاجآت عالم الغيب، الذي لا يعلمه إلا ا .

سورة الإسراء ثرية بمعالجات الأبعاد الغيبية المتعلقة بأمة الإسلام والرسالة الإسلامية. وعندما نضيف إليها سورة الكهف التي تليها تتجلّى لنا هذه الأبعاد بصورة أوضح. وما أحوج الناس اليوم إلى تدبر معاني السورتين في مثل هذه الأجواء التي تحيط بنا. كيف لا، والعواصف تعصف بالكثير من حقائق الواقع التي كانت تبدو راسخة. ويبقى الوحي الكريم هو الطبيب الوحيد الذي يلامس القلوب المؤمنة، فيزيل ما بها من شوائب الشك والحيرة والتردد. وما أجملَ أن تتعلق القلوبُ بالأمل الذي مصدره اليقين: " **كتب ا ُ لأغلبن أنا ورسلي**...".

# الآخرة

عندما تؤمن المدرسة الوجودية بالعبثية، وعندما ترفع شـعاراً يقول:" لا شيء له معنى إلا الموت"، فإنها تكون قد عبرت بوضـوح عن الحقيقة التي يهرب من مواجهتها الماديون، لأن هذه النتيجة لا بد أن يصل إليها كل من أنكر اليوم الآخر؛ فعظمة الكون، وإبداع الخالق، والهدفية المتجلية في كل صغير وكبير من هذا الوجود، كل ذلك يفقد معناه عندما نعتبر أن الدنيا هي نهاية المطاف.

إذا كان وجودي ينتهي بالموت، فلماذا أعيش ؟! هل يوجد في الحياة الدنيا ما يسوغ الاستمرار فيها ؟! وماذا يعنى التزامنا بالمبادئ والقيم، وماذا يبقى من سلطة الالزام إذا ما أقصينا الدين ؟! وما مـدى منطقية القول: هذا يجوز، وهذا لا يجوز ؟! نعم فبإمكانك أن تشـكك في كل القيم، ويمكنك أن ترفض كل شيء، ويمكنك أن تفعل ما تشاء، لأن الدنيا هي نهاية المطاف. نعم سيكتشف النـاس أن إنكـار اليـوم الآخر يُفرغ الحياة الدنيا من معناها، وعندها لا بد أن تكون السـيادة للفلسفة العبثية، وعندها سيكون الانتحار هو الشجاعة التي تستند إلـى

العقل والمنطق، وسيكون الاستمرار هو الغباء الذي يورث الجبن والتردد.

حتى **الآخرة** تفقد معناها عندما يكون لها نهاية. ومن هنا كان الخلود من أكبر حقائق اليوم الآخر، بل إن الرغبة الملحة لدى الإنسان في البقاء والاستمرار لهي من أوضح حقائق النفس البشرية، وكأنّه لا يصلح لعالم الخلود إلا من رُكِّب فيه الميل إلى الخلود. وقد جاء الدين منسجماً مع حقائق الخلق، فكانت **الآخرة** من حقائق الوجود، وكان الخلود من حقائق **الآخرة**. وهنا يتحقق الانسجام الكامل في كل شيء، وبذلك تظهر الفلسفة المادية كعارض مرضي، وشذوذ تأباه البشرية، لأنه يتناقض مع فطرتها. لذا سيبقى الإلحاد استثناء غير قابل لأن يكون القاعدة.

من يقرأ القرآن الكريم يجد أن قضية اليوم الآخر تكاد تكون هي القضية الأولى، وتحظى بمساحة ضخمة في كتاب ا العزيز، ويكتشف أن صلاح الدنيا لا يكون إلا بالايمان **بالآخرة**، وأن صلاحها هو المقدمة الضرورية لصلاح **الآخرة**، ولا مجال للفصل بين العالمين، بل لقد باءت كل محاولات الفصل، عبر التاريخ البشري، بالإخفاق الذريع. وأبرز علامات هذا الإخفاق الإيمان بالعبثية، والشعور بفقدان الهدفية، وانهيار القيم الأخلاقية. وليس عجيباً بعد ذلك أن نسمع أن أعلى نسبة للانتحار في العالم هي في البلاد الاسكندنافية، والتي هي الأولى في مستوى الرفاه المادي. وليس غريباً أيضاً أن

نجد الجموح والتمرد يسودان في المجتمعات الغربية، التي سادت فيها، يوماً ما، فلسفة احتقار الدنيا، وانتشرت فيها الرهبنة وتقديس العزلـة، التي عبر عنها أصدق تعبير بعض كتّاب الغرب في تلـك العصـور عندما قال :" إن القديس فلاناً لم يرتكب إثم غسل الوجه ثلاثين عاما، وإن القديس فلاناً لم يرتكب إثم غسل الرجلين خمسين عاما، أما نحن، فواأسفاه، ندخل الحمام كل يوم !".

تكرر **(اليوم الآخر)** في القرآن الكريم **26** مرة. وتكررت كلمة **الآخرة** بمعنى اليوم الآخر **113** مرة. وتكرر **( يوم الدين) 11** مرة، وتكرر **( يوم القيامة) 70** مرة. فكيف بنا إذا أحصينا أيضـاً: يـوم الحساب، ويوم التغابن، والصاخّة، والحاقة، والجنـة، والنّـار، ...... وغير ذلك، من الألفاظ الدالّة على اليوم الآخر؟! في المقابل نريد من الذين قرأوا التوراة الحالية، والعهد القديم، أن يدلونا على نص واحـد يُصرح بعقيدة اليوم الآخر لدى اليهود. في حين نجد هناك أكثر مـن نص في الأناجيل المتداولة ينص على عقيدة اليوم الآخر. وهذا يعني أن قضية اليوم الآخر عند اليهود هي قضية اجتهادية. وبإمكانك بعـد ذلك أن تفهم الكثير من مواقفهم وسلوكياتهم ... !!

# الظّـن

هل يستطيع العربي الفصيح أن يستوعب أن **الظّن** قد يأتي بمعنى اليقين؟ لا نظن ذلك. ولكن الكثير منّا قد يقبل هذا القول على مضض، لأن أهل التفسير يقولون بأن الظّن قد يرد أحياناً في القـرآن الكـريم بمعنى اليقين، ويستشهدون للتدليل على مذهبهم هذا بمثل قوله تعالى: " **الذين يظُنون أَنهُمْ مُلاقُو ربهمْ وأَنهُمْ إِليْهِ راجِعُون** ". فلما قـالوا إن العقيدة لا بد لها من جزم، ولما رأوا أن الإيمان لا بد أن يكون قاطعا، قادهم ذلك إلى حتمية القول بأن الظّن قد يأتي بمعنـى اليقـين. ولـم يقولوا لنا لماذا شاء ا تعالى أن يقول: " **يظنون**" بدل "**يوقنون**" !!

يبدو أن الخطأ نتج عن زعمنا بأن العقيدة يجب أن تكون جازمة حتى ينجو المؤمن يوم القيامة. ولا ندري من أين جئنا بهذا الزعم في مواجهة آيات صريحة تَقبلُ من العبد أن يسلك وفق غلبة الظّـن، وإلا فما معنى أن الإيمان يزيد وينقص؟ يقول ا تعالى: " **ويزْداد الـذِين آمنُوا إِيماناً** ". فمعلوم أن لا مجال للزيادة على ال **100%** ولا مجال للنقصان. هذا إذا كان المطلوب هو الجزم القاطع. وهنا لا بد من لفت الانتباه إلى أن القرآن الكريم يُسمي العقيدة **إيماناً**. وقد نزلت الرسالات

لتبني الإيمان في النفوس ليبلغ الإنسان **درجة اليقين**. وعندما يتكلم القرآن الكريم عن وظيفة الرسالات المنزلة يُذكر بالنتائج المرجو تحققها، والأدلة على ذلك في القرآن كثيرة، مثل قوله تعالى: " **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتقِين. الذِين يُؤْمِنُون بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُون الصلاةَ وَمِما رزقْنَاهُمْ يُنْفِقُون. والذِين يُؤْمِنُون بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرةِ هُمْ يُوقِنُون** ". وهذا لا يعني إطلاقاً أن الذي أسلم نفسه تعالى، وهو في دائرة غلبة الظن، غير مقبول عند ا . بل إن الآيات الكريمة واضحة وصريحة في قبول من يسلك على ضوء غلبة الظن. والمشكلة هنا في تحكيم وجهة النظر السابقة في النص القرآني.

يقول سبحانه وتعالى: " **إِن بعْض الظن إِثْمٌ** ". فلا يصح في الدين أن يكون كلّ الظن إثماً، لأن هناك الكثير من المسائل في العقيدة والشريعة لا يمكن الوصول فيها إلى درجة اليقين؛ فلا بد عندها من الاستناد إلى الظن الغالب. والمقصود بالظن الغالب هنا هو الظن الذي يغلب الظنون الأخرى. وعليه فإذا كان الظن في مواجهة الدليل اليقيني فإنه يكون مذموما. وكذلك يُذم الظن في مواجهة غلبة الظن. انظر قوله تعالى: " **إِن الظن لا يُغْنِي مِن الْحق شيْئاً** ". فلا قيمة للظن في مواجهة الحقيقة.

فرق البعض بين العقيدة والشريعة فقالوا: إن العقيدة لا تثبت إلا بالدليل القطعي، أما الشريعة فتثبت بالدليل الظنّي. وعندما نبحث عن سند شرعي لهذا التفريق يصعب أن نجده. بل نجد أن الأحاديث الكثيرة تُثبتُ بأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يبعث آحاد الناس لتعليم العقيدة والشريعة، ولم يكن يُفرق؛ فلم نجده، مثلا، عند تعليم العقيدة يشترط، عليه السلام، الكثرة التي تبلغ حد التواتر. ويجدر هنا لفت الانتباه إلى أن **كل حكم شرعي** فيه جانب إخباري **(عقيدة)،** وفيه جانب تشريعي؛ فعندما نقول: " **الصلاة فرض**"، فإن هذه العبارة هي خبر يتضمن طلباً، فمن أنكر فرضية الصلاة كفر، ومن لم يُصلّ عصى.

وكما وقع أولئك في الخطأ فوصلوا إلى نتائج عجيبة، كذلك وقع خصومهم في خطأ أكبر عندما ذهبوا إلى أن العقيدة الجازمة تثبت بخبر الواحد، فقالوا إن خبر الواحد يوجب العلم، واستدلوا على ذلك بفعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقد كان يبعث آحاد الناس ليعلموا العقيدة، وقد تواترت الأخبار بذلك. وفي الحقيقة أن فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، يُعتبر دليلاً على جواز أن يكون ناقل العقيدة والشريعة شخصاً واحدا، أو آحاداً من الناس، وأنّه يجوز لنا أن نُصدق آحاد الناس، ولا فرق في ذلك بين عقيدة وشريعة. ولكن من أين لنا أن خبر الآحاد يوجب **العلم الجازم**، والله سبحانه وتعالى يقول: " **واسْتَشْهِدُوا شَهيدَيْن مِنْ رِجالِكُم**..."، وهو القائل سبحانه: " **والذين**

**يرْمُون الْمُحْصنَاتِ ثُم لَمْ يأْتُوا بِأَرْبعةِ شُـهداء فَاجْلِـدُوهُمْ ثَمـانِين جلْدة...**" ؟! والعجيب هنا أنهم لا يقبلون في إثبات **ديْن** علـى مـدين بشهادة رجل واحد، حتى ولو كان عمر بن الخطاب، رضي ا عنه، ثم هم يوجبون **التصديق الجازم** بخبر رجل واحد أو امرأة واحدة فـي **دِين** يلتزمه المليارات من البشر إلى يوم القيامة.

هناك فرق بين التصديق ووجوب التصديق؛ فمن البدهي أنّه يجوز لنا أن نتتلمذ في العقيدة أو الشريعة على عالم واحد، أو على آحادٍ من العلماء، ولكن من قال بأننا ملزمون بتصديقه أو تصديقهم، في كل ما يقول أو يقولون، وعلى وجه الخصوص عندما يتعارض قولهم مع ظاهر القرآن الكريم، أو ظواهر الشريعة، أو بدهيات العقول؟!

# التقويم

قال تعالى في سورة التين: " **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ".
قالوا في التقويم: إنّه جعلُ الشيء ذا قوام. وقوام الشيء: ما يقوم به ويثبت. وتُصرح الآية الكريمة بأن ا تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، ويذهب بعض أهل التفسير إلى أن المقصود هنا القوام الجسدي، وهذا بعيد عن سياق النص القرآني، وإن كان اللفظ يحتمله. والراجح أن المقصود هنا هو تعديل القوى الظاهرة والباطنة معا، أي المادية والمعنوية، وعلى وجه الخصوص القوى المعنوية، من مثل العقل والإدراك.

واضح من الآية الكريمة أن تقويم الإنسان خاص به، وهو يتميز في ذلك عن باقي الكائنات، كيف لا، وا قد سخّر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض. وقد يستشكل البعض قوله تعالى: " **في أحسن تقويم** ". إذ على المستوى المادي يمكن أن يكون الإنسان أشد تحصيناً من الأمراض الجسدية، وعلى المستوى المعنوي محفوظاً من الأمراض النفسية، وبذلك يكون في تقويم أحسن. ويزول الإشكال عندما ندرك أن " **أحسن**" تتعلق بخلق الإنسان على **ضوء وظيفته** في

الأرض. ومن هنا لا يلزم مثلاً أن يكون قوام الإنسان يؤدي به إلـى الخلود في الدنيا، لأن هذا ما سيكون في الآخرة. وقد جاء في الأثر: " **خُلقت الدنيا لكم وخلقتم للآخرة** ". وهذا من بدهيات الدين.

الأصل في الإنسان الخير والعدالة، وأما الشّر فهو طارئ على الكيان الإنساني؛ ففي الوقت الذي خلق فيه الإنسان في أحسن تقـويم، بحيث يحقق وظيفته في الأرض، خلق فيه أيضـاً قابليـة الانتكـاس والارتكاس، والارتداد إلى الأسوأ: " **ثم رددناهُ أسفلَ سافلين** ". وهذا يعني أن التقويم المعنوي المنسجم مع وظيفة الإنسـان فـي الأرض يمكن أن يتحول إلى النقيض. وحتى لا يكون هذا الارتداد، لا بد مـن العمل الصالح، القائم على أساس من الإيمان الصـحيح: " **إلا الـذين آمنوا وعملوا الصالحات ..** ". فكل مولود يولد على الفطرة، أي فـي أحسن تقويم. ويمكن المحافظة على هذه الفطرة وتوظيفها في تحقيـق الخلافة في الأرض، إذا ما كانت التربية تستند إلى الإيمان الداعي إلى العمل الصالح. ومن هنا ندرك أن الدين ضرورة بشرية، وليس بخيار يُضاف إلى خيارات الإنسان.

هل استطاع العلم في القرن الحادي والعشرين أن يخلق فـي الأمم الغربية الإنسان الصالح، الذي يقوم بواجب الخلافة ؟! والإجابة نجدها واضحة في واقع البشرية اليوم، فنكتشف أن الظلـم والتجبـر، والغطرسة والفجور، هي من أهم مميزات الدول التي تقع في أعلـى

سُلّم العلم والتكنولوجيا. إنّه إفلاس الغني، وضعف القوي. إنّه العلـو الذي هو في حقيقته أسفل سافلين. وتبقى مشيئة ا تعالى فوق الجميع: " **فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض** ". ولا ينفع الناس إلا ما كان ينسجم مع فطرتهم السوية.

إن مهمة المصلحين تستند إلى فطرة الإنسان، ومن هنا تكون احتمالات النجاح كبيرة، وهذا ما نلحظه اليوم من سقوط الكثير من الطروحات المتناقضة مع الفطرة، حيث أنه لم يكد يغادرنا القرن العشرون إلا وقد أخذ معه الكثير من العقائد والأفكار والأوهام، وظهر ذلك جليا في البيئات الاجتماعية التي ظهر فيها مصلحون. ولا نزعم أبدا أن الصورة الآن جميلة ومشرقة بما فيه الكفاية، ولكن مسار الأمور يشير إلى أن الخلاص هو مستقبل الإنسان في المدى غير البعيد. **وا غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**.

# الفضل

**الفضل**: هو الزيادة، والعرب تقول لما يبقى من الماء في الإنـاء بعد الشرب **فضلة**، وعليه تكون الفضلة: ما يبقى من الشيء، وما يزيد عن الاقتصاد والحاجة. فالألفاظ المشتقة من **(فضل)** يغلب أن تستـخدم في الزيادة الإيجابية. يقول تعالى في سـورة النحـل: " **وا فضـل بعضكم على بعض في الرزق**": واضح أن المقصـود بالفضـل هنـا الزيادة في الرزق. ويقول سبحانه في سورة الإسراء: " **انظـر كيـف فضلنا بعضهم على بعض..**": فالتفاوت الإيجابي في خَلْق الناس مـن أهم أسس التحضر الإنساني. ويقول سبحانه في سـورة الرعـد: "**... ونُفضلُ بعضها على بعضٍ في الأُكُل** ": والمقصود هنا التمـايز فـي أطعام النباتات، وقيمتها الغذائية. ويتفاضل بعضها على بعض، ممـا يؤدي إلى التنوع الإيجابي.

قد يخلط الناس أحياناً بين مفهوم **(الخيرية)**، ومفهوم **(الأفضلية)**؛ فإذا كانت الأفضلية تتعلق بزيادة في المال، أو القوة، أو الجمـال، أو العقل...، فإن الخيرية تتعلق بزيادة الخير؛ فإذا كان فـلان يفضـلني بمال، أو قوة، أو عقل.. فليس بالضرورة أن يكون هو خيراً مني؛ فكم من فقير هو خير من ألف غني، وكم من ضعيف هو خير من ألـف

قوي. من هنا كان الحكم الرباني الذي صدر في حق مجتمع الصحابة، رضوان ا عليهم: " **كنتم خير أمة أخرجت للناس** "، ولم يقل سبحانه وتعالى: " كنتم أفضل أمة.."، لأن الفضل يحتمل وجوهاً كثيـرة، ولا يستلزم الخيرية إلا إذا كان فضل تقوى. والتفضيل الأخروي لا يستند إلى الفضل الدنيوي، بل يستند إلى الخيرية في الحياة الدنيا.

يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: " **يا بني إسرائيل اذكـروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، وأنّي فضلتكم على العالمين**". هـذه الآيـة الكريمة هي من الآيات التي أنّبت اليهود، لنكرانهم النعمـة، وعـدم شكرهم ، الذي فضلهم، أي زادهم في العطاء الدنيوي بالإضافة إلى الكتاب والفرقان. وتُعدد الآيات التي جاءت بعد هذه الآية، من سـورة البقرة، النّعم التي كانت لبني إسرائيل ولم تكن لغيـرهم مـن الأمـم، فاستحقوا بكفرهم هذه النعمة أن تضرب عليهم الذلة والمسـكنة، وأن يبوءوا بغضب من ا ، بل: " **وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يـوم القيامة من يسومُهم سوء العذاب** ". بهذا تتضح بعض أسرار الغضب الرباني النازل باليهود: " **غير المغضوب عليهم** "؛ فقد كانت خيـانتهم كبيرة. لاحظ بعض هذه النعم التي ذكرت وعُددت بعد قوله تعـالى: " **يا بنـي إسـرائيل اذكـروا نعمتـي..." : " وإذ نجينـاكم مـن آل فرعون..." ، " وإذ فرقنا بكم البحر.." ، " وإذ واعـدنا موسـى.." ، " .. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشـكرون" ، " وظللنـا علـيكم الغمام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى " ، " وإذ قلنا ادخلوا هذه القريةَ**

**فكلوا منها حيث شئتم رغدا.." ، " وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب.." ، " وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد..".** نعم، هذه النّعم، وغيرها مما ذكر في سورة البقرة وسور أخرى، لم تحصل لأمة من الأمم، ولو حصلت لغيرهم لكانت من دواعي الشكر والطاعة، ولكنّهم كفروا النعمة، وتمادوا في غيهم وتنكروا لفضل الخالق سبحانه؛ فكان الحكم العادل، هو ما نصت عليه الآيات التي ختمت الحديث عن هذه النّعم: **"وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من ا ..".** وهذا ليس لهم فقط، بل لكل خائن لا تزيده النعم إلا ضلالا.

وأخيراً نقول: إذا كانت الآية الكريمة هي من أشد الآيات ذماً لليهود، ولخيانتهم، فكيف فهمها البعض على أنها آية مدح ؟! ولماذا ذهب البعض في تأويلها المذاهب، على الرغم من أن صيغتها هي صيغة تقريع ؟! يبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى الخلط بين مفهوم الخيرية ومفهوم الأفضلية.

# الشـهيـد

**الشهيد**: اسم من أسماء ا الحسنى، فعلم ا تعالى يحيط بكل شيء، فهو، سبحانه وتعالى، عالم الغيب والشهادة. جاء فـي سـورة الرعد: "**قل كفى با شهيداً**" وقد كرم ا ُ بعض خلقه فجعلهم شـهداء على النّاس، جاء في سورة النساء: " **فكيف إذا جئنا مـن كـل أمـة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ". فالأنبياء شهداء على أقوامهم، والرسول، عليه السلام، شهيد على الأمة الآخرة، والأمة الإسـلامية شاهدة وشهيدة على باقي الأمم حتى تقوم الساعة. جاء فـي سـورة البقرة: " **وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شـهداء علـى النـاس ويكون الرسول عليكم شهيداً** " .

وحتى تكون الأمة شهيدة على الناس، لا بد أن تكـون ممثلـة لحقيقة الإسلام في إيمانها، وسلوكها، ولا بد أن تحيط بـالواقع مـن حولها، وتكون قادرة على تقييم هذا الواقع، والحكم عليه، على ضوء مقاييس الإسلام. ويكتمل معنى الشهادة في الأمة عندما تقدم البـدائل للواقع السلبي، وبذلك تكون شهيدة في الدنيا، وهذا يؤهلها لأن تكـون في مقام الشهادة يوم القيامة، أي في مقام التكريم. جاء فـي سـورة النساء:" **ومن يطع ا والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا عليهم من**

**النبيـين والصـديقين والشـهداء والصـالحين وحسـن أولئـك رفيقاً**". وجاء في سورة الزمر: " **وجيء بالنبيين والشهداء..**".

إن الشهداء في الآخرة هم الشهداء في الدنيا، فهم الذين يعملون على إقامة العدل، على أساس من شرع ا . جاء في سورة المائـدة: " **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين شهداء بالقسط** ". وجاء فـي سورة النساء: " **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء** ". ومعلوم من النص القرآني الحكيم أن ا تعالى قد أرسل الرسـل وأنزل الكتب من أجل أن يقوم الناسُ بالعدل، جاء في سورة الحديـد: " **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميـزان ليقـوم الناسُ بالقسط** ". وللقيام بالعدل، ولإقامة العدل، لا يكفي قوة الفكـرة وتماسكها، وسموها، بل لا بد من القوة التي تحق الحـق، أي تجعلـه واقعاً راسخاً في الأرض. انظر تتمة الآية من سورة الحديد: " **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم ا من ينصره ورسـله بالغيب إن ا قوي عزيز** ".

والقيام بالقسط، والسير في سبيل ا قد يترتب عليه مـوت أو قتل، وهذا في منطق الذين لا يؤمنون مجازفة وخسـارة. جـاء فـي سورة آل عمران: " **يا أيها الذين آمنوا لا تكونـوا كالـذين كفـروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُـزى لـو كـانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ليجعل ا ذلك حسرة فـي قلـوبهم، وا**

**يحيي ويميت، وا  بما تعملون بصير** ". يستفاد من هذه الآية أيضـاً أن القرآن الكريم يفرق بين الموت في سبيل ا ، والقتل في سبيل ا . جاء في الآية 157 من سورة آل عمران: " **ولئن قتلتم في سبيل ا أو متم لمغفرة من ا  ورحمة خير مما يجمعون** ". ويظهر مثل هذا الفرق في اعتبار من يُقتل في سبيل ا  شهيداً حيا. والشهادة اختيـار رباني، جاء في سورة آل عمران: " **ويتخذَ منكم شهداء** ". والشـهيد شاهد بفعله على صدق مبدئه، وعمق إيمانه، وهو شاهد على تقاعس المتقاعسين، ثم هو يوم القيامة من الشهداء الذين يشهدون على الناس. ولا يصح في إيمان المؤمن أن يظن أن الشهيد ميت، ولا يجوز لنا أن ننفوه بذلك، بل نحكم له بالحياة عند ربه، لأننا ملزمون بالأخـذ بمـا يظهر لنا من حاله.

من اللافت للانتباه أن كلمة شهيد هي من الكلمات التي لا مرادف لها في اللغة العربية، وهي من الألفاظ الإسلامية التي يستخدمها حتى غير المسلمين، وغير الموقنين، إذا أرادوا تكريم قتلاهم، أو حتى موتاهم. وفي الوقت الذي استبدل فيه هؤلاء مصطلح **الجهاد**، مثلاً، فقالوا: كفاح، ونضال، و قتال، ... فإننا نجدهم يحرصون على استخدام مصطلح شهيد. وقد يشهد هذا الموقف بحقيقة ما تُكِن صدورهم من شك وتردد تجاه عقائدهم، وما تستشعره عقولهم وقلوبهم من جلال الإسلام وأحقّيته.

# الوكيل

**الوكيل**: هو الموكول إليه، والمفوض إليه الأمر. وعليه فلا وكيل على الحقيقة إلا ا  تعالى. وهو سبحانه سبب الأسباب، ومن يتوكـل على ا  فهو حسبه. ومعلوم أن التوكل هو من أفعال القلـوب؛ فهـو إيمان وتصديق، ثم هو توجه ورغبة، وهـو قـوة عظيمـة تشـحن الإرادات، كيف لا وهو الركون إلى ركن شديد ؟! وما من إنسـان إلا ويرغب في وكيل. وما عالم الحسرة، والـوهن، والإحبـاط، وسـوء الظن، وما إلى ذلك من أمراض القلوب والإرادات، إلا مـن نتـائج التوكل على غير ا ، من المخلوقات الضعيفة، والكائنات المحتاجة.

تُستهل سورة الإسراء بآية تتحدث عن حادثة الإسراء بالرسول، عليه السلام، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ويدهشـك أن الآيات التي تلي تتحدث عن إفسادين لليهود فـي الأرض المباركـة. والذي يهمنا، في هذه العُجالة، الوصية التي أنزلهـا ا  تعـالى فـي التوراة، ثم أنزلها في الآية الثانية من سورة الإسراء: " **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل، ألا تتخذوا من دوني وكـيلا**..". فلماذا هذه الوصية المشددة والمكررة ؟! وما علاقتها بالإفساد اليهودي في الأرض المقدسة ؟! والواضح من نصـها الكـريم أنهـا وصـية وتحذير: " **ألا تتخذوا من دوني وكيلا**..". وقد يكون من أسـرارها أن

النهايات المفجعة للمجتمعات اليهودية ترجع إلى اعتماد هؤلاء اليهود على وكلاء من عالم الشهادة، وهذا مؤشر على ضعف الإيمان بـا تعالى، وهو دليل أيضا على شدة تعلق هؤلاء بعالم المادة وبالأسـباب الأرضية.

إسرائيل شاحاك من الكتاب اليهود الذين يُلفتون انتباهـك فـي قربهم النسبي من الموضوعية، وهو من القلة التي انتقدت العنصـرية الصهيونية، وكشفت حقيقة الكيان الإسرائيلي في فلسطين. وهو يـرى أن المذابح، التي تعرض لها اليهود في المجتمعات الغربية، ترجع في الأساس إلى التحالفات التي كان يقيمها اليهود مـع القـوى المتنفّـذة والظالمة. والعجيب أن هذا الخطأ يتكرر وكأنه قانون في حياة اليهود، على الرغم من أن النتائج كانت دائما مفجعة، وعلى وجه الخصوص عندما تَنقض الشعوب على جلاديها. والأعجب من هذا أن اليهود لـم يستخلصوا العبر، وما زالوا يؤمنون بإمكانية الركون والتوكل علـى القوى البشرية والمادية، حتى باتت المادة، وبات رأس المال، المعبود الذي يتوكلون عليه.

عندما شعر اليهود بصعود أمريكا، القـوة الجديـدة، وجـدناهم يسارعون إلى الهجرة إليها، حتى باتوا فـي أعلـى درجـات السـلم السياسي والاقتصادي، وأصبح الأمريكي شيئا فشيئا يشـعر بوطـأة أقدامهم على رقبته. وهذا الشعور قابل للتصاعد على ضوء المعطيات التي تُخبرنا بان المجتمع الأمريكي يتحول، شيئا فشيئا، إلـى مجتمـع

الأقلية المالكة والأكثرية المغلوبة على أمرها، والتي باتت تشكل الآلة التي تخدم الأسياد، ولديها شعور متفاقم بالغُبن والإجحاف. هـذا فـي داخل أمريكا، أما في الخارج، فقد بات المجتمع الدولي يشعر بالنفور الشديد من هذا المتطفل، الذي يضرب بسيف المارد الأمريكـي، ولا يقيم وزنا لمشاعر الآخرين، ولا يشعر أبدا باحتمال انقلاب الموازين، وتغير الوقائع، بل ينطلق في سلوكه من منطلق أن هذه هـي نهايـة التاريخ. وبهذا نجدهم يكررون الخطأ، ويقعون في المحذور. ولم يعد بإمكانهم أن يستمعوا إلى رب الناس يحذرهم: " **ألا تتخذوا من دونـي وكيلا**...".

إن هذه الوصية لا تخص اليهود دون غيرهم، وإن كانوا هم الأحوج إليها. ونحن لا نعجب من سلوك اليهود هذا عندما نطلع على تراثهم الديني والثقافي، وإنما العجب، كل العجب، أن يذهل عن هذه الوصية الربانية بعض من عايش الإسلام، فنهل من القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وتنسم عبير تراثه المفعم بالإيمان والثقة واليقين والتوكل: " **ومن يتوكل على ا فهو حسبه، إن ا بالغ أمره، قد جعل ا لكل شيء قدرا**".

# الآل والأهل

**أهل** الرجل في الأصل هم من يجمعه وإياهم مسكن واحد. ونلحظ بالاستقراء أن الملازمة هي أبرز دلالات كلمة الأهل، ومن هنا نقول: أهل المدينة، أهل البيت، أهل الكتاب، أهل العلم ... أما **الآل** فهم الذين يؤول إليهم الإنسان، أي يرجع إليهم، أو يرجعون إليه فـي ديـن، أو مذهب، أو نسب ... من هنا يقال للأهل أحياناً آل، ولكـن كلمـة **آل** تستخدم في بيان شرف من يؤول إليهم الإنسان، أو شرف من يؤولون إليه.

جاء في الآية **33** من سورة الأحزاب: " **إنّما يريـد ا ليـذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ". المتدبر للآيات الكريمة يدرك أن مسؤولية الملازمين للرسول، صلى ا عليه وسـلم، مـن أقرباء وأزواج هي أكبر من مسؤولية الآخرين، ومن هنا خصـهم ا تعالى بأحكام فيها من التشدد والاحتياط ما فيها، نظراً لحساسية موقف الرسول القائد، عليه السلام، والذي هو القدوة الحسنة: " **لقد كان لكـم في رسول ا أسوة حسنة** ". وعلى الرغم من وضوح هذا في القرآن والسنة، فقد تصور البعض أن وصف أهل البيت يعطي من ينتسـبون إلى الرسول، صلى ا عليه وسلم، الأفضلية، فيـدعوهم ذلـك إلـى التحلل من المسؤولية، ويتوسلون بالنسب الشريف للتسلط على رقـاب

الناس، وتبرير خيانتهم ولرسوله وللمؤمنين. ولما كانت كلمة أهـل تدل على الملابسة والملازمة، فلا يستطيع أحد أن يزعمها بعد **1400** سنة، بل يُلحظ أن كثيراً ممن يزعمونها اليوم هم الأبعدون، الـذين لا ينتمون إلى الأمة بل إلى أعدائها.

جاء في الحديث الشريف أن صحابياً سأل الرسول صلى ا عليه وسلم قائلاً: " **كيف نُسلّم عليكم أهل البيت؟** ". فجاء جواب الرسـول الكريم ليجعل السلام على المتقين من أمته، الذين يرجعون دوماً إلـى دينه وشريعته، بحيث أصبح الرسول مرجعهم ومرجعيتهم، فقال، عليه السلام: " **قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد** ... ". نعم، لا معنى لأن نخص بالدعاء أهل البيت، حيث لم يشهد القرآن ولم تشـهد السنّة لهم بالعصمة، ولم يرد في الدين ما يدل على تميزهم وتفضيلهم، بل لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد، عليه السلام، يـدها. نعم لا معنى لهذا الاختصاص، وقد وجدنا أن مـن أقربائـه، عليـه السلام، من قاوم دعوة ا ، وأساء إلى رسوله. وهذا إبـراهيم، عليـه السلام، يطلب أن تكون الإمامة في ذريته فجـاءه الـوحي بـالجواب الحاسم: " **لا ينال عهدي الظالمين** ". أما تكريم المجتمع المسلم لأهـل بيت الرسول، صلى ا عليه وسلم، فهو دليل على صـدق الإيمـان، وصدق الاتباع، وصدق المحبة، كيف لا، وقد أوصـى رسـول ا ، صلى ا عليه وسلم، بأهل بيته الكرام. وقد شهد الواقـع التـاريخي

بخيريتهم، وإمامتهم في التقوى والصلاح، وصبروا وصابروا حتـى لقوا وجه ا تعالى.

جاء في الآية **4** من سورة التحريم: "...**فإن ا هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين** ". فإذا كان آل الرسول، عليه السلام، أعظم منزلة من أهله، فإن أولياءه أعظم منزلة من آله، لأنهم أصحاب النسب الحقيقي، ولأنهم اختاروه، وأحبوه، ونصروه، وقدموه على كل ما سواه. وقد يحسن أن نختم بكلمات للإمام جعفر الصادق عندما سئل عن آل البيت فقال: " إذا قاموا بشرائط شريعته كانوا آله " وهذا يعني أن آله في اعتبار الإمام جعفر الصادق، هم **أولياؤه الذين يحملون دعوته، وينصرون شريعته، فيبلغون بذلك أعلى مراتب القرب والقرابة.**

# الأرض المقدسة

جاء في الآية **21** من سورة المائدة على لسان موسى، عليه السلام**:" يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب ا لكم** ...". الراجح أن المقصود **بالأرض المقدسة،** في هذه الآية الكريمة، أرض فلسطين. ولسنا هنا في مقام تحديد حدودها الجغرافية في المنظار الديني. وواضح، في الآية الكريمة، أن موسى، عليه السلام، قد طلب من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، التي فَرض ا عليهم دخولها في حينه. وقد ارتبط هذا الفرض بوعد أن يتم دخولهم بسهولة ويسر: **" ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ...". ولسنا أيضاً في مقام رفع الالتباس الذي وقع عند البعض في فهم هذه الآية، فظنّوا أن المعنى: **" الأرض المقدسة التي كتبها ا لكم** .." أو **" كُتِبت لكم "**، في صيغة المبني للمجهول. وإنّما نريد هنا أن نلقي الضوء على بعض دلالات عبارة: **الأرض المقدسة**.

**القُدُسُ** أو **القُدْس:** هو الطُهر. **والأرض المقدسة**: هي الأرض المطهرة. وهناك فرق بين قولنا: **الأرض الطاهرة،** وقولنا**: الأرض المطهرة؛** فالطاهرة هي التي لا يلابسها دنس. أما المطهرة فقد يلابسها الدنس، ولكن لا تلبث أن تُطهر، فكلما تكرر وجود الدنس

تكرر التطهير. ويُفهم من هذا أن لفلسطين وظيفة مباركة، تتعلق بمسيرة البشرية كلها: " **الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ". فهي الأرض التي لايتجذّر فيها باطل، ولا يدوم فيها شر؛ لأنها الأرض المطهرة من ذلك كله. وقد يُعبر عن هذا المعنى ما ورد من أنّها لا يُعمر فيها ظالم.

فيها كانت نهاية سلطان الرومان الشرقيين، وكان ذلك في معركة **اليرموك.** أما نهاية البطش المغولي فكانت في **عين جالوت.** ولا تسأل عن نهاية نابليون، ولا تنس أن نهاية المسيح الدجال ستكون في الأرض المقدسة ، وكذلك نهاية يأجوج ومأجوج. أما اليوم، فإن وجود إسرائيل يكاد يُنسينا حقيقة وجوهر هذه الأرض، بل قد يظن البعض أن عجلة التاريخ ستتوقف عند هذه اللحظة، أو أن سنة ا في المجتمعات ستتخلف، وأن كينونة فلسطين المتميزة في كونها **مُطهرة** ستزول، وما أدركوا أن وجود إسرائيل على الصورة التي وجدت فيها، وبلوغ الإفساد الصهيوني أبعاداً عالمية، بحيث يصدر هذا الفساد عن هيمنة وسيطرة كونية الامتداد، لهو الدليل على أن الأمور تسير في طريق التقاء أقدار المفسدين بقدْر فلسطين، الأرض المقدسة.

جاء في الحديث الشريف: " **إن الأرض لا تُقدس أحداً، ولكن يُقدِسُ الرجلَ عملُهُ** ". فوجود الإنسان في الأرض المقدسة لا يطهره من ذنوبه وأدرانه، بل لا بد من العمل الصالح حتى تتطهر النفس من

أمراضها وأدرانها: "...**ولكن يُطهر الرجلَ عملُه** ". فعمر الشر في الأرض المقدسة قصير إذا ما قورن بما سواها من أراضٍ وبلاد. وقد يفسر هذا اضطراب المنطقة المستمر عبر العصور؛ فقدسيتها تأبى عليها أن تتقبل على ظهرها الإفساد. ولا ننسى أننا ننظر هنا بمنظار غيبي، بغض النظر عما يؤيده في عالم الشهادة. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى النظرة المستندة إلى بُعدين؛ بُعد واقعي يرفده بُعد غيبي، حتى لا يؤدي ثقل الواقع المحسوس إلى الإحباط والتحلل. والدارس للتاريخ يجد أن **صلاح الدين**، ومن عاصره من المسلمين، كانوا يملكون هذا المنظار الثنائي المتكامل.

فإذا كانت فلسطين متميزة في كينونتها على باقي بقاع الأرض بأنّها مطهرة، فإن ذلك من أهم العوامل التي تساعد أهل الجد والإخلاص في تحقيق العدالة، في الوقت الذي طغى فيه الشّر واستشرى. وأخيراً نذكّر بما قاله الرجلان في الآية 23 من سورة المائدة: " **ادخلوا عليهم الباب** ...".

# الأرض المباركة

بوركت فلسطين في القرآن الكريم خمس مرات، وقدست مرة. وسبق لنا أن ناقشنا مفهوم القداسة، وبالتالي مفهوم الأرض المقدسة، أي المطهرة، والتي لا يُعمر فيها ظالم. ولقد تميزت فلسطين على باقي بقاع الأرض بأنها المقدسة والمباركة. جاء في الآية **18** من سورة المائدة على لسان موسى، عليه السلام : " **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة...** " وجاء في الآية **71** من سورة الأنبياء في حق ابراهيم، عليه السلام: " **ونجيناه ولوطاً إلى الارض التي باركنا فيها للعالمين** ". واللافت للاهتمام في هذه الآية أن فلسطين مبارك فيها للبشرية جمعاء، وهذا يدعو إلى التدبر، لعلنا ندرك بعض أسرار هذه البركة.

**البركة** فيها معنى الثبات والاستقرار، وفيها معنى الاستمرار والملازمة، ومنه سمي المكان الذي هو محبس للماء بركة. وعليه فالبركة هنا _ كما جاء في قول المفسرين _ هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء، أو هي الخير المستقر في الشيء اللازم له. وهذا يعني أن الخير الإلهي حل في كينونة فلسطين، وهذا الخير يلازمها في كل

العصور، إلى يوم القيامة. وتتجلى بركتها في كونها مقدسة ومطهـرة من الشّر، ولا يتجذر فيها باطل.

لقد نجحت الحملات الصليبية في احتلال مساحات شاسـعة مـن العالم العربي والإسلامي، وكانت فلسطين هي الهدف المركزي لهـذه الحملات، وعندما حُسم الصراع علـى أرضـها المباركـة، رجـع الصليبيون الى بلادهم وقد تأثروا تأثراً بالغاً بفكر وأخلاقيات الشـرق الاسلامي. وكانت هزيمتهم من اهم المقدمات للنهضة الغربية في كافة المجالات. وكان لهذه التجربة الأثر الكبير في انسـياح الأوروبيـين غرباً مما أدى الى اكتشاف الأمريكيتين. وإذا كانت **حطين** هي نقطـة تحول هامة في تاريخ المسلمين والأوروبيين، فإن **عين جالوت** كانت المنعطف الحاد الذي نقل المغول من أمة مفسدة، وسافكة للدماء، إلـى أمة متحضرة، تقيم العدل على أساس من الدين الاسلامي الحنيف.

لا نستطيع أن نتخيل صورة العالم لو نجحت حملة نابليون فـي الشرق العربي، ومعلوم أن هزيمته في فلسطين هي التي قضت تماماً على طموحه في السيطرة على الشرق الإسـلامي، بـل وقوضـت سيطرته في أوروبا، وقلبت موازين القوى في حينه. واليـوم شـكّل الاحتلال الصهيوني لفلسطين تحدياً كبيراً للعرب والمسلمين، ولا يزال هذا التحدي يشكل استفزازاً لوعي الشعوب في المنطقة؛ فالإخفاقات قد تسبب إحباطاً مؤقتاً ولكنها تسرع في الوعي، وتسـقط الكثيـر مـن

الأصنام والوثنيات، وتدفع بقوة نحو العودة إلـى الـذات الحضـارية الواعية.

لقد شكلت القضية الفلسطينية حاجزاً صلباً حمى وحفظ شـعوب المنطقة من الذوبان في الحضارة الغربية. وقد وقع ذلك فـي الوقـت الذي كان فيه الإنسان في العالم العربي والإسلامي يعاني من الأميـة والتخلف؛ فعندما شعرت الشعوب العربية والإسلامية بعداوة الغـرب الشرسة، وعندما رأت هذا الغرب يبذل المال والسلاح والخبرات ليقيم الكيان الصهيوني على تراب الأرض المباركة، أدركت أنّـه العـدو التاريخي، وأنّه النقيض الحضاري، فأصـبح الإنتمـاء إلـى الـذات الحضارية يقود بالضرورة إلى رفض التغريب. إن الإخفاق في حـل المسألة الفلسطينية يعني أن الأمة لم تصل بعد إلى طور العالمية. وفي الوقت الذي نستطيع فيه أن نحل هذه المسألة حلاً عـادلاً نكـون قـد أصبحنا في المستوى اللائق بحمل رسالة الاسلام للعالم. وإذا تكلمنـا بمنطق من يدرس التاريخ، ويراقب الواقع، ويرصد التحولات، فلـن نتردد لحظة في القول بأن حل المسألة الفلسطينية هو مسـألة وقـت. وتاريخ الأرض المباركة يشهد بذلك. ولسنا بحاجة إلى الإصغاء إلـى المحبطين، لأنّهم حالة مرضية، وعقيدة وثنية، وبمثل هؤلاء لا يـزداد الناس إلا سقوطاً.

# الأقصى

لو سألت الياباني: أين تقع أمريكا بالنسبة لليابان؟ يغلب أن يكون الجواب: هي في الغرب. وخطأ هذه الإجابة واضح، لان أمريكا تقـع شرق اليابان، لذا يسافر الياباني شرقاً ليصل إلى أمريكا، لأن طريـق الغرب طويلة جداً. وعلى الرغم من ذلك فان الياباني يتعامـل علـى أساس أن أمريكا هي غرب، وذلك لأن أمريكا تقع إلى الغرب مـن خط غرينتش، خط التأريخ الدولي، الذي اصطلح عليه عندما كانـت بريطانيا دولة عظمى، وكان الشرق كله يعاني من التخلف والأميـة، وكانت بريطانيا في مركز القيادة العالمي. واليوم لا زال الغرب هـو القائد والمسيطر، ولا يُتوقع أن يُغير العالم من اصـطلاحات الغـرب حتى تتغير موازين القوى، وحتى يتغير مركـز الثقـل علـى هـذه الأرض.

من مقاصد الشريعة الإسلامية أن تتميز الأمـة لتكـون القـدوة للبشرية، ولتتمكن من التأثير، من أجل التغييـر الإيجـابي، لإخـراج الناس من الظلمات إلى النور. ويظهر هذا التميز في أمـور كثيـرة، ومنها التميز في المصطلحات. وقد سادت المصطلحات الإسلامية في العصور الذهبية للدولة الإسلامية وتعدت حدود هذه الدولة. ولكن في

الوقت الذي فقد فيه العالم الإسلامي مركز الصدارة تراجعت مصطلحاته، ولم تعد مستعملة من قبل الآخرين، بل لم يعد العالم الإسلامي يعتز بما لديه من مصطلحات، لأنه أصبح تابعاً ومقلداً. ويبدو أن هذه نتيجة حتمية للتخاف الذي أصاب المسلمين على مدى قرون من الزمن. في المقابل نجد أن العودة إلى الذات في العقود الأخيرة أحيت الكثير من المصطلحات، فعاد المسلم يعتز بذاته الحضارية بعد أن كان مسلوب الإرادة أمام بريق الآخرين.

عندما نزل قوله تعالى: "**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ..." كانت مراكز القوى تتمثل في بلاد فارس، وبلاد الرومان. ولا شك أن مسجد بيت المقدس كان أقرب إلى بلاد الرومان من المسجد الحرام، إلا أن القرآن اعتبره **المسجد الأقصى،** وفي ذلك إشارة إلى أن مكة المكرمة هي المقياس المرجع، الذي يجب أن نقيس عليه، وأن نرجع عند القياس إليه. ومعلوم أن المساجد التي تشد إليها الرحال في الدين الإسلامي هي: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، والمسجد النبوي، الذي يقع بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى. وقد ذكر بعض العلماء أن تسمية مسجد بيت المقدس **بالمسجد الأقصى** فيه إشارة إلى أن المسجد النبوي سيُبنى، على اعتبار أن ذكر الأقصى يُشير إلى القصي، كما تشير كلمة الأبعد إلى البعيد. أي أن هذه التسمية الربانية تتضمن خبراً غيبياً.

إذا فُهم هذا سيكون من السهل علينا أن نفهم عبارة: " **أدنى الأرض** " في قوله تعالى من سورة الروم: " **غُلبت الرومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين..."؛** فقد كانت هزيمة الروم في أدنى الأرض، هذا بالنسبة إلى جزيرة العرب؛ حيث كانت بلاد الروم مترامية الأطراف شاسعة المساحات، إلا أن هزيمتها المشار إليها كانت في بلاد الشام، أي في أدنى الأراضي التي يسيطر عليها الرومان بالنسبة إلى جزيرة العرب. بهذا يتّضح أن القرآن الكريم يجعل من مكة، وما يحيط بها من جزيرة العرب، المكان الذي يرجع إليه، أي هو المكان الذي يجب أن تكون له المركزية في فكر المسلم، وضميره، وحِسه، وواقعه، ومصطلحاته. وعلى أية حال لا يكون هذا واقعاً حتى تتغير أمور كثيرة.والمراقب للتطورات الفكرية والاجتماعية في العالم العربي والإسلامي يلاحظ المؤشرات الكثيرة التي تُعلن عن عودة الأمة إلى ذاتها وحضارتها.

# المسجد الأقصى

في المقال السابق تناولنا بعض أسرار اسم الأقصـى، ومـا نهدف إليه في هذا المقال أن نلقي الأضواء علـى مسـاحة المسـجد الأقصى، والذي دفعنا إلى هذا ما يتردد تصحيحاً لأوهام النّاس، بـأن الأقصى هو البناء الجنوبي، وليس قبة الصخرة. وهذا الأسلوب فـي تصحيح الخطأ يوقع الناس في بلبلة واضطراب، إضافة إلى أنّه يجافي الحقيقة، لأن المسجد الأقصى هو تلك المساحة التي تقارب ال **(144)** دونما، وهي المساحة المحاطة بحلقة من الأبنية، والتي تشـكّل مـع السور حدود المسجد الأقصى. وتشمل هذه المساحة، كما هو معروف، بناء قبة الصخرة، والبناء الجنوبي، المسمى بالأقصى. وأية مسـاحة تضاف مستقبلاً تأخذ حكم المسجد الأقصى.

ومعلوم في التاريخ الإسلامي أن عمر بن الخطاب، رضي ا عنه، هو أول من أنشأ بناء في القسم الجنوبي من الأقصى. أما لمـاذا في أقصى الجنوب، فهذا واضح، لأن القبلة هي في الاتجاه الجنـوبي من فلسطين، ومعلوم أن الإمام يقف في مقدمة المسـجد ثـم تكـون الصفوف من خلفه متكاملة نحو الشمال. وعليه لا لا بد من أن يكـون محراب الإمام في أقصى الجنوب، وغير هذا يعني إلغاء جـزء مـن مسجِدية المسجد. من هنا وجدنا العامة تسمي البناء الجنوبي بالأقصى،

مع علم الجميع بأن اسم الأقصى يطلق على الكل، ولا إشكال في إطلاق الاسم على الجزء. وعليه تكون قبة الصخرة جزءاً لا يتجزأ من الأقصى، وهذا معلوم بداهة. ولكن قد يتوهم من لم يعش في فلسطين أن الأقصى ينحصر في قبة الصخرة، وقد يتوهم آخرون بأن الأقصى ينحصر في البناء الجنوبي.

ولكن هل هناك خصوصية لصخرة بيت المقدس تجعلها متميزة دينياً على باقي أرجاء المسجد الأقصى ؟

لقد نُسجت حول الصخرة الأساطير الكثيرة، روجها بعض العلماء قبل أن يروجها العامة. وقد ساعد عدم وجود أحاديث صحيحة حول خصوصية الصخرة في ذهاب الخيال مذاهب كثيرة، بل لقد اتُخذت الصخرة في عصور الجهل قبلة في الصلاة، وطاف بها عوام المسلمين كما يطوفون بالكعبة، وتقربوا إليها بأنواع القربات، مما جعل العلماء المحققين يجهرون بأنّه لم يصح شيء عن رسول ا ، صلى ا عليه وسلم، ولا عن الصحابة الكرام، يدل على خصوصية الصخرة، وبالتالي يحرم شرعاً أن تُخَص بطواف أو ذبح، ويحرم تعمد اتخاذها قبلة.

بعد كل ما ذكر يبقى السؤال الكبير الذي يحتاج إلى إجابة مقنعة وهو: إذا لم يكن للصخرة خصوصية بالنسبة إلى باقي المسجد، فلماذا أقام عبد الملك بن مروان هذا البناء البديع، المسمى قبة الصخرة؟! ومعلوم أن عبد الملك بن مروان هو من التابعين الذين

عاصروا الصحابة الكرام، وكان من فقهاء المدينة، ومن هنا نجد أنـه قد بادر إلى بناء قبة الصخرة قبل أن يبدأ ببناء الأقصـى الجنـوبي. وهذا يدل على معرفته بمقام هذه الصخرة، ووجود البناء يُغني عـن كثير من الكلام، كيف لا والكل يجمع على شخوصها لأكثر من ألـف وثلاثمائة وخمسين سنة. فهي الشاهد الماثل في الحس، الذي يُغني عن قيل وقال، كما أغنت الأبنية المحددة لساحات المسجد الأقصـى عـن حاجتنا إلى الأسانيد التي تحدد لنا الأطوال والمساحات، وهذا في علم التاريخ أبلغ من كل الروايات.

لقد دفعت بدع العوام بعض العلماء إلى المبالغة في الرد، إلى درجة الذهول عن معنى بناء قبة الصـخرة فـي عصـر التـابعين المعاصرين للصحابة الكرام، بل إن بعض كبار العلماء يـذهب بـه رفضه لبدع العوام إلى أن يقبل الرواية التي زعمت أن عبد الملك بن مروان بنى قبة الصخرة ليصرف النـاس عـن الكعبـة المشـرفة. والغريب أنّهم يقبلون مثل هذه المزاعم من غير أن يطلبوا الدليل على صدق الرواية، وهم يعلمون أن أعداء بني أمية قد أكثروا في ذمهـم، والكذب في حقهم، وللكذب علامات لا تخفى على الباحث.

قال ابن كثير في تفسير الآية **142** من سورة البقرة: " **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلـتهم التـي كـانوا عليهـا..**". "وحاصل الأمر أنه قد كان رسول ا ، صلى ا عليه وسـلم، **أُمـر** باستقبال **الصخرة** من بيت المقدس... قاله ابن عبـاس والجمهـور".

وعليه فإننا نستطيع أن نقدر بأن الصخرة هي ثاني بيت وضع للناس، ثم اتسعت المساحات من حولها، كما هو في الكعبة أول بيت عبد فيه الناس رب العالمين. ولنا زيادة على هذا التقدير أدلة قرآنية علـى أن كهف الصخرة هو كهف أصحاب الكهف، ولعلنا نبسط هذا الأمر في مقام آخر إن شاء ا .

# الروم

سورة الروم سورة مكية، نزلت قبل الهجرة بأشهر، هي أقل من سنة. وتستهل السورة الكريمة بالإعلان عن هزيمة دولة عظمى، هي دولة الروم: " **غُلبت الروم في أدنى الأرض...** ". ولم تصرح الآيات باسم دولة الفرس التي غلبت الروم، لأن المهم هنا الحديث عن دولة الروم، حتى ولو كانت هي الطرف الضعيف المهزوم. فالحديث عن الحاضر ينبغي أن يكون من أجل استشراف المستقبل، والمستقبل يكشف عنه قول الحكيم العليم: " **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ". أما دولة الفرس فعلم المستقبل يقول إنها دولة ستؤول إلى السقوط، ثم تتلاشى، بعد أن يتحول شعبها إلى الإسلام. وإذا كانت المعارك قد دارت قريباً من جزيرة العرب: " **في أدنى الأرض** "، فإن علم المستقبل يقول إنها ستدور مرة أخرى، في زمن قريب: " **في بضع سنين** ".

أليس عجيباً أن يُلفت انتباه القلة المؤمنة المضطهدة في مكة إلى الصراع القائم بين الدول العظمى، وإلى التحولات السريعة في الأحداث ؟! أليس عجيباً أيضاً أن يُشد انتباه هذه القلّة، لبضع سنين قادمة، إلى خارج الجزيرة العربية، لتراقب وترقب الصراعات الدولية

؟! نعم، ونزداد عجباً عندما نعلم أن هذه القلّة توشك أن تهـاجر إلـى المدينة المنورة، لتبني دولة ومجتمعاً فاضلاً، لا يلبث أن يحمل رسالة عالمية، ولا يلبث أن يُسقِط كل هذه القـوى المتصـارعة، ليؤسـس حضارة تدوم وتدوم.

ما الحكمة وراء هذا التـزامن العجيـب: " **ويومئـذ يفـرح المؤمنون بنصر ا** " ؟! فانتصار المسلمين ببدر يزامنـه انتصـار الروم على الفرس. ألا يوحي هذا بأن خارطة الصـراع توشـك أن تتبدل ؟! واللافت أن الآيات الكريمة تتجـاوز الواقـع المـؤلم للقلـة المؤمنة، والمضطهدة، وتشدها إلى البعد الغيبي لحركة عالم الشـهادة، إلى الأفق البعيد زماناً ومكانا. وهذا هو ما يليق بعقيدة هـذه القلّـة، ورسالتها. ولا شك أن هذا في حينه لا يفهم من قبل جماهير الوثنيين، الذين يفقدون البعد الغيبي، الذي تنزلت به الرسالة الإسلامية.

أنت يا من تقرأ هذه السطور، وتعيش بعد قرون مـن الحـدث، وقد وقرأتَ السيرة النبوية، قف قليلاً وتدبر هذه الآية، التي تُختم بهـا سورة الروم المكية: " **فاصبر إن وعد ا حق، ولا يستخفّنّك الذين لا يوقنـون** ". تدبر هذه الآية ثم انظر واقع الإعلام الرسمي العربـي ودوره في إحباط الأمة، واستمع إلى خطابـات الملـوك والزعمـاء وتصريحاتهم. فإن كان بإمكانك أن تصدقهم لحظات، فسوف تشـعر بخفة وزنك، وانعدام شعورك بذاتيتك، وعندها لا يحتاج عدوك إلـى عاصفة الصحراء، لأن النسيم يكفي.

جاء في الحديث الشريف المروي في صحيح مسـلم: " **تقـوم الساعة والروم أكثر الناس** ". وإذا عرفنا أن الأحاديث الشريفة تنص على أن الساعة تقوم على شرار النّاس، علمنا أن أكثر الشر يوجد في الروم. والعجيب أن المسيحية المنتشرة بينهم تقول: " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن نازعك ثوبك فدعه له ". وتقـول: " أحبوا مبغضيكم، باركوا لاعنيكم ". ثم هم أشد الناس قسوة، وأكثرهم بطشاً بالأمم الضعيفة، يبنون أبراجهم من جماجم الفقراء، لا يملّون من التآمر، ولا يكلّون من كثرة القتل، ثـم هـم أكثـر النّـاس تبجحـاً بحضارتهم، وقيمهم الإنسانية، بزعمهم. فلا عجب بعد ذلك وغيره أن تقوم الساعة والروم أكثر النّاس.

ماذا كانت تملك دولة فارس عندما انتصرت بجحافلها الهائلـة غير فلسفة مزدك الإباحية؟! وكيف لمثل هذا النصر أن يدوم أكثر من بضع سنين؟! وماذا كانت تملك إمبراطورية الرومان وهـي تواجـه بجيوشها الجرارة القلّة المؤمنة من صحابة رسول ا ، صلى ا عليه وسلم ؟!

واليوم إذا استثنينا العلم والتكنولوجيـا، وسـألنا مـاذا قـدمت الحضارة الغربية للبشرية ؟! نعم، إذا استثنينا ما هو عـام وعـالمي، وسألنا: ماذا يمكن أن تُقدم الخصوصية الغربية للبشرية ؟! ماذا عسى أن تكون إجابة رجل مثل بِرلسكوني، الرئيس الإيطالي، الذي تغنّـى مؤخراً بقيم بالحضارة الغربية؟ إن ما يحدث اليـوم فـي أفغانسـتان

وغيرها لهو شاهد على إفلاس هـذه الحضـارة الغربيـة وأُفولهـا، والمستقبل كفيل بإثبات ذلك.[1]

[1] المقصود ما حصل عند احتلال أفغانستان بعد أحداث 11 سبتمبر المشهورة.

# أم القـرى

جاء في الآية 92 من سورة الأنعام: " **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه، ولتنذر أم القرى ومن حولها**...".

وجاء في الآية 7 من سورة الشورى: " **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها**... " واضح أن **أم القرى** هنا هي مكة. وقد يقال إن المقصود بذلك أنها العاصمة بمفهومنا المعاصر. وإذا علمنا بأن القرآن الكريم قد نزل إلى البشرية جمعاء، أصبح من المحتمل أن يكون المقصود **بمن حولها**: مجموع الناس. وقد سبق أن بينا في مقام آخر أن القرآن الكريم يجعل من مكة البؤرة والمركز، والمكان الذي ينسب إليه، ويقاس عليه، غيره من الأمكنة؛ فالمسجد الأقصى هو الأقصى بالنسبة إلى مكة، أما القصي فهو المسجد النبوي. وعليه يصح أن يكون المقصود **بمن حولها**: مجموع البشرية. وإذا كان هذا صحيحاً فما المقصود **بأم القرى** ؟

**القَرْيُ**: هو **الجمع**. ولما كان النـاس يجتمعـون فـي صـيغة شعوب وقبائل، فقد سميت مجموعاتهم هذه قرى، وسميت كل مجموعة قرية. فالقرية إذن تعبر عن الاجتماع البشري. ولما كان هذا الاجتماع لا بد أن يكون في مكان، فصح أن يسمى مكان الاجتماع قرية. جـاء

في الآية 59 من سورة الكهف: " **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلمـوا** " : إن المقصود هنا أهل القرى، لأن القرى تطلق، كمـا قلنـا، علـى الاجتماع البشري، وعلى مكان الاجتماع أيضـاً. وعليـه يحتمـل أن يكون المقصود بأم القرى: **أم الأمم**. ومعلوم أن الأم هي الأصل الذي يصدر عنه الفرع. وهذا يقودنا إلى القول بأن مكة هي المكان الـذي خرج منه الناس إلى بقاع الأرض المختلفة، أي أن مكة هي أول مكانٍ اجتمع فيه البشر، ومنه صدروا، وذلك بعد أن تكاثروا. وقد يعني هذا أن مكة هي أول نقطة التقاءٍ للبشريةِ بالأرض. ويبـدو أنهـا كانـت المكان الذي نزل فيه آدم، عليه السلام، أول ما نزل.

جاء في الآية 96 من سورة آل عمران: " **إن أول بيـت وضـع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين** ". إذا كان أول بيت وُضِـع، ليتعبد فيه الناس، هو المسجد الحرام في مكة، فإن ذلـك يعنـي أنّـه مُغرق في القدم، والأقرب أن يكون قد وضع للناس في فجر البشرية، لأنه بعيد في العقل أن يبقى الناس فترة طويلة من الزمن لا يجتمعون في مكان يجمعهم على عبادة ا ، وعلى وجه الخصوص عندما نعلـم بأن آدم، عليه السلام، كان نبياً، فهذا يعني أن البشـرية قـد بـدأت مسيرتها في الأرض وهي تعرف الخالق وتعبده، ثم كانت الانحرافات بعد فترة من الزمن، فبعث ا سبحانه وتعالى نوحاً، عليـه السـلام، فكان أول رسول للناس.

فإن قيل إن قلة عدد الناس، في البداية، لا يحـتم وجـود مكـان يجمعهم للعبادة، بل لا ضرورة لذلك. قلنا نعم هذا ممكـن، ولكـن إذا عرفنا أن مساحة الكعبة من الداخل لا يزيد كثيراً عن **(80 متراً مربعاً )** وإذا أدخلنا **( الحِجر )** فقد لا تتجاوز **(100متر مربع)**. وعليه فكم يمكن أن يكون عدد الذين يحتشدون في مثل هذه المساحة مـن أجـل أداء العبادة ؟. ولا يتوقع أن تكون أول عبادة على صيغة طواف، وإلا فما معنى المساحة الداخلية، وما معنى أنه مسجد ؟ وقد سـئل الرسـول، صلى ا عليه وسلم، كما جاء في الحديث الصحيح، عـن أول بيـت وضع للناس فقال، عليه السلام: المسجد الحرام. قيل: ثم أي ؟ قـال: المسجد الأقصى... ومعلوم أن المسجد الأقصى لا طواف عنده.

**" إن أول بيت وُضِع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعـالمين "**.
لفظة: **(وُضع)** تدل على أن الأمر كان بوحي سماوي، وتكليف رباني. أما لفظة: **(بيت)** فتدل على أن العبادة في البداية كانت في داخله. وأما لفظة: **( للناس)** فتشير إلى أنّه وضع لجميع الناس. وإذا كانت مساحة البيت هي ما ذكرناه آنفا، فان هذا يشير إلى عدد الناس القليل، ممـا يدل على أنّه قد وضع في فجر البشرية، أما جملـة: **" للـذي ببكـة مباركاً"** فلها مقام آخر، إن شاء ا تعالى؟ وأمـا جملـة: **" وهـدى للعالمين "** فتؤكد أنّه وضع لجميع البشر. وإذا كان صحيحاً ما توصلنا إليه، من أن مكة هي أول مكان أقام فيه البشر وجودهم الاجتمـاعي، أفلا يصبح فهمنا للأمور الآتية أكثر وضوحاً :

**أولا:** أن حج الناس كل الناس يجب أن يكون إلى مكة.

**ثانيا:** أن أذان إبراهيم، عليه السلام، بالحج كان من مكة، وإلى الناس في كل مكان، كما توحي الآيات الكريمة من سورة الحج.

**ثالثا:** أن فريضة الحج يُخاطب بها الناس، في حين أن أركان الإسلام الأخرى يُخاطب بها المؤمنون. وأن أعلى نسبة تكرار لكلمة **النـاس** هي في سورة الناس، ثم سورة الحج.

**رابعا:** أن لباس الحاج يكون بسيطاً بحيث يلغي الفوارق، فيعود الناس كما كانوا في أول اجتماع لهم على الأرض، فيذكرهم ذلك بـأخوتهم الإنسانية.

# المدينـة

هاجر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى يثرب. وقبل أن ينزل، عليه السلام، بيتاً من بيوتها كان قد حدد المكان الذي يُبنى فيه المسجد. وهذا الفعل يدل على أهمية المسجد في المجتمع الإسلامي. ثم ما لبث الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن استبدل اسم **يثرب** باسم **المدينة**. ومن اللافت للانتباه أن تُسمى مدينة ما باسم المدينة، وعلى وجه الخصوص عندما تُعرف، فكأنّها وحدها المدينة.

أطال المفكرون والفلاسفة الحديث في أفضـل صـيغة ممكنـة للاجتماع البشري، أو ما يُسمى: **المدينة الفاضلة**. ولا شك أن المدينة الفاضلة هي حُلم البشرية منذ القديم وإلى يومنا هذا. وقد ظن الإنسان المعاصر أن الحلّ سيكون في التطور العلمـي والتكنولـوجي، إلاّ أن مرور عدة قرون على النهضة العلمية أثبت أن العلم وحده قاصر عن إيجاد المجتمع البشري الفاضل، بل إن التفكك الأسري، والاجتماعي، وانتشار الجرائم، وسيطرة الفلسفة العبثية، أصبحت مـن خصـائص المجتمعات العلمانية المتقدمة علمياً وتكنولوجيا، فعاد الإنسان فيها، بعد طول معاناة، يحاول أن يستعين بالدين، ليعيد التوازن إلـى مسـيرته المتعثّرة.

كان مما نزل في المدينة بعد الهجرة: " **كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با** ": تُعلن الآية الكريمة عن ميلاد ووجود المجتمع المنشود والمدينة الفاضلة، التي يبحث عنها البشر. ولم تَخرُج هذه الأمة نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي، فكل هذا مجرد وسائل ميسرة للعيش ومساعدة على البقاء. بل إن التطور العلمي والمادي، في المجتمعات الإسلامية، جاء ثمرة لصياغة الإنسان على مستوى الفكرة، والسلوك الفردي والاجتماعي. من هنا لم يكن من قبيل الصدفة أن يظهر، مثلاً، الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، قبل ظهور الرازي وابن سينا وجابر بن حيان. وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يشتهر عدل عمر بن الخطاب قبل اشتهار فقه الشافعي، أو فلسفة واصل بن عطاء....

الإسلام عقيدة وشريعة، ودين منه الدولة. وإذا كانت الفلسفة يمكن أن تبقى فكرة نظرية بعيدة عن الواقع التطبيقي، فان الدين قد نزل من أجل أن يخلق واقعاً جديداً في عالم الاجتماع الإنساني، ولا يجوز أن يبقى سجين الإطار النظري، ومن هنا كانت ضرورة الهجرة من مكة إلى يثرب. وبما أن الهجرة قد أوجدت الواقع الذي يجب أن يتحرك فيه الدين، فقد جاء الإعلان المجلجل عن ميلاد المدينة الفاضلة، التي يحلم بها الإنسان منذ فجره الأول. وإذا كانت التسمية للمولود تحمل الرغبة والأمل والتوقّع، فإن هذا كان واضحاً تماماً في دلالة تغيير اسم **(يثرب)** لتصبح **(المدينة)**.

بعد هذا الحدث بأقل من عشر سنوات جاء الإعلان عن تخريج شعب المدينة الفاضلة: " **كنتم خير أمة أخرجت للناس**...". وعليه فإذا أراد الناس أن يصنعوا مجتمعاً فاضلا، فان هذا هو المثال، وهذه هي المدينة الفاضلة. وليس غريباً بعد ذلك أن نجد المسلمين، عبر العصور والى يومنا هذا، يتوقون بشدة إلى المجتمع المدني الأول، وأن نجدهم يحكمون على كل المجتمعات الإسلامية، التي جاءت بعد المرحلة الراشدة، بالانحراف النسبي. ولا يزال الحنين الشديد إلى تلك الحقبة يشد الجميع، ولا يزال الناس يتخذون من تلك المرحلة مقياساً. ألا يدل كل ذلك بوضوح على أن المدينة الفاضلة ولدت ووجدت في مجتمع المدينة الأول من أجل أن تكون على مدى العصور مصدر الإلهام، والقدوة والميزان ؟ وسيبقى كل ما سواها دونها، لأنّها أخرجت وخُرجت لأجل الناس.

أما **يثرب** فقد ماتت، ولم تعد تعني أحدا من الناس، إلا ما كان من بعض المتنفذين في مرحلة الجاهلية، من أمثال عبد ا بن أبي بن سلول، الذي توقّع وتمنّى زوال المدينة، وذلك عندما رأى الأحزاب تُطبق بجيوشها على أطرافها، فكانت منه الصيحة التي تكشف عن أسرار القلوب، وتعلن عن رغائب الموتورين من أعداء الحقيقة، وأعداء المدينة الفاضلة: " **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا**..." **الأحزاب13**. وإذا كانت **يثرب** أمنية بعض المنافقين فإن **المدينة** ستبقى أمنية الإنسانية جمعاء.

# الكعبة

**الكَعب**: هو النتوء والبروز، ومن هنا سـمي الجـزء المرتفـع والبارز من القدم كعباً. وورد في اللغة أن **الكعبة**: هي البيت المكعب، أي المربع، وقيل المرتفع. وصحح بعضـهم المعنـى الأول، أي أن الكعبة: هي كل بيت مربع. وبما أن الكعبة هي أول بيت وُضِع للناس من أجل العبادة، كما ينص القرآن الكريم، فلا يبعد أن تكون التسـمية ربانية المصدر، ولأن الكعبة بُنيت مربعة فقد أصبح الناس يصِـفون كل بيت مربع بأنه كعبة، ثم اشتق منه المكعب ليعني المربع، ثم أُطلِق المكعب على المجسم ثلاثي الأبعاد ذي الأوجـه المربعـة. وبمـا أن الكعبة هي أول بيت مرتفع وبارز فوق الأرض، فقد كانت كل الألفاظ المشتقة من هذا الاسم تدل على الارتفاع، وبالتالي لا داعي لأن نُرجح معنى على آخر. ولأن الكعبة هي قبلة المسلمين في الصلاة والحـج، فقد وجدنا الناس يجعلون لفظة الكعبة مرادفة للفظة القبلة.

جاء في الآية **97** من سورة المائدة: " **جعلَ اللهُ الْكَعْبـةَ الْبَيْـتَ الْحرام قِياماً ِللناسِ والشهْر الْحرام**... ".

واضح أن البيت الحرام كان في البداية لا يزيـد عـن مسـاحة الكعبة، والتي تقارب (**100 م2**). من هنا نجد أن الآية تُصـرح بـأن الكعبة هي البيت الحرام. أما اليوم فإن مساحة البيت الحرام ضـخمة جداً، ويمكن أن تزاد وتلحق بها مساحات أخرى حتى تصل الحـدود التي حددها الرسول، صلى الله عليه وسلم، كمنطقة حرام، لها أحكـام خاصة. ويبقى للكعبة مركزيتها، بل إن كل ما أحـاط بهـا اكتسـب مكانته لصلته وقربه منها.

جاء في الآية **5** من سورة النساء: " **ولا تُؤْتُوا السفَهاء أَمْوالَكُمُ الِتي جعلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً** ": فقد جعل الله تعالى المال قوام الحياة، فـلا تقوم الحياة، ولا تثبت، ولا تستمر، إلا بالمال. وهذا معلوم وبـدهي، وليس هو محل جدال أو تشكيك. واللافت للنظر أن القرآن الكريم لـم يستخدم مثل هذا التعبير مرة أخرى إلا في سورة المائدة، فـي قولـه تعالى: " **جعلَ اللهُ الْكَعْبةَ الْبيْـتَ الْحـرام قِيامـاً لِلنـاس والشـهْر الْحرام...**" فجعْلُ المال من مقومات الحياة أمر مفهوم ومجمـع عليـه بين الناس. ولكن الأمر الذي قد لا يُفهم بداهة، وليس هو محل إجماع، فهو **الإيمان**، الذي يولّد في النفوس مفهوم القداسة، ومفهوم الواجـب، ومفهوم الحرمات. وقد نزلت الرسالات الربانية لتقيمـه، وتحرسـه، وتعززه.

فالحياة البشرية لا تقوم بالمال وحده، ولا مجـال لاسـتمرار الوجود المجتمعي الإنساني بعيداً عن المفاهيم التي يغرسها الدين فـي النفوس. من هنا يمكن للمستقرئ أن يُلاحظ ذلك؛ فالمجتمعـات التـي يضعف فيها تأثير الدين، وتزلزل فيها قِيمهُ ومفاهيمه، لا بد أن تظهر فيها عوامل التفكك والانحلال، بـل إن الإنسـان، فـي مثـل هـذه المجتمعات، يفتقد هدفية وجوده ومسوغ استمراره. ومن هنـا نجـد، مثلاً، أن الفلسفة الوجودية في الغرب، والتي ترفع شعار: (لا إله)، هي أيضاً التي ترفع شعار (العبثية)، بل إن من أساسـيات مبـادئهم: " لا شيء له معنى إلا الموت، وغاية إمكانيات الإنسـان الانتحـار ". ولا شك أن للدين دوراً متنامياً في المجتمعات البشرية المختلفـة، ولـذلك يصعب أن نجد اليوم مجتمعاً يتجرد من الإيمان، ومن مفهوم القداسة، والواجب، والحرمة، إلا أنه بالإمكان أن نلاحظ التناسب الطردي بين قوة الإيمان وقيمهِ في المجتمع، وقوة التماسك الاجتماعي. وقد ثبـت بالتجربة أن توافر المال، والذي هو القوام الأول، غير كافٍ إلـى أن يتحقق الإيمان، والذي هو القوام الثاني. ويمكن ملاحظة أثـر فقـدان القوام الثاني في المدارس المادية، مثل المدرسة الوجودية، وذلك على المستوى الفلسفي، ومثل المدرسة الماركسية، وذلك علـى المسـتوى الفلسفي والواقعي. وما تجربة الاتحاد السوفييتي عنّا ببعيد، فهي غنية الآن عن البيان.

فالأحكام المتعلقة بالكعبة والحج إليها، والأحكام المتعلقة بالأشهر الحُرُم، والأحكام المتعلقة بالهدي والأضاحي، وغير ذلك من الأحكـام ذات العلاقة بمكانة الكعبة، تُشكّل في شِقّها الإيماني وشقّها السـلوكي القوام الثاني. وقد يكون من السهل على الناس أن يدركوا أهمية نظام العقوبات، مثلا، وضرورته لقيام الحياة المجتمعية المستقرة، إلا أنّهـم قد يغفلون عن أهمية وضرورة تشريعاتٍ كالحج وأحكامـه؛ فيلتـبس على البعض فَهْم كيف يمكن أن تكون **الكعبة قياما للنـاس**. ويبدو أننا بحاجة إلى إعادة نظر ومزيد تدبر لأحكام وأسرار الركن الخامس من أركان الإسلام.

# عـرفـات

المتدبر لمناسك الحج يجد أنّها ترمز إلى أساسيات الفكرة الدينية، بل قد تلخّص المقاصد والأهداف من نزول الرسالات؛ فالطواف يرمز إلى ضرورة الانسجام مع قوانين الخلق والفطرة. أما السعي بين الصفا والمروة فهو يرمز إلى قطبي الخوف والرجاء ودورهما في البناء الحضاري الإنساني، وقد فصلنا القول في ذلك في مقام آخر. ونريد هنا أن نتوقّف قليلاً عند ركن الوقوف بعرفة، والذي هو الأهم في كل مناسك الحج، إلى درجة أن الحج يتلخّص في هذا الوقوف؛ فقد قال صلى ا عليه وسلم في الحديث الصحيح: " **الحج عرفة** ". ومن لم يقف بعرفة فحجه باطل.

إذا أعلن كل حاج بطوافه عن انسجامه، في حركته وسلوكه، مع حركة الكون من حوله، أو بمعنى آخر أعلن عن استسلامه طوعاً كما استسلم الكون، أو بمعنى ثالث أعلن عن رغبته في تحقيـق جـوهر الإسلام. نعم، إذا تحقق هذا، ثم قام الحاج بالإعلان عن خوفه وطمعه، رغبته ورهبته، بسعيه وتردده بين الصفا والمروة، إذا حصل كل هذا، فقد آن لكل هؤلاء أن يقفوا في صعيد واحدٍ في عرفات. نعم، لقـد آن لهم أن **يتعارفوا**، وآن لهم أن **يعترفـوا** بالربوبيـة، وأن يعترفـوا

بفقرهم والتجائهم إليه عز وجل. وآن لهم أن يتعرفوا إلى ا ليعرفهم. جاء في الحديث الشريف: "...تعرف إلى ا في الرخاء يعرفك في الشدة..".

يصح لغةً أن تكون **عرفات** جمع عرفة. وكلّ قطعة أرض يقف عليها حاج فهي عرفة، وكلّ موقف لكلّ حاج عرفة. لذا فالموقف كلّه عرفات. إنّه موقف **تعارف، واعتراف، وتعرف**. وما يهمنا في هذه العجالة هو التعارف؛ ففي يوم عرفة تسقط الفوارق والحواجز، وتقف الأمم والشعوب أمام الحقيقة التي تُذكّر بصلة الرحم: " **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**...": إنّه صوت الدين الخالد يتواصل عبر العصور يرُد مسيرة البشرية إلى الطريق المستقيم. ما أكثر النزعات والدعوات والشهوات، التي تحاول أن تنحرف بالمسيرة البشرية، وتجهد في محاولة طمس حقيقة الأخوة الإنسانية. وتبلغ البشاعة مبلغها عندما تلبس هذه الدعوات لباس الدين، كما هو في العنصرية الصهيونية، وليدة اليهودية المنحرفة.

لم ينزل الدين ليحقق القناعات الفكرية فقط، بل جاء ليجعل الفكرة عاملة وفاعلة في الواقع البشري. وتكتمل الصورة عندما يتطابق الواقع المحسوس مع الفكرة، فيكون الانسجام بين النظرية والتطبيق. ويظهر ذلك جلياً في إجابة عائشة، رضي ا عنها، عندما سُئلت عن خُلق الرسول، صلى ا عليه وسلم، فقالت: " **كان خلقه القرآن**". وفي

الوقت الذي يكون فيه الواقع هو الانعكاس الحقيقي للفكرة الإسـلامية، والتعبير الصادق عن صدقها وفاعليتها، عندها سيشهد الناس اكتمالين؛ الاكتمال الأول، ويكون بتجلّي يأس أعداء الحقيقة الدينية من إمكانيـة تطويق الدين، أو تطويعه، أو الوقوف حجر عثـرة أمـام مسـيرته. ويكون ذلك نتيجةً لمشاهدتهم الواقع غير القابل للنقض والإفناء. أمـا الاكتمال الثاني، فهو تحقق المقاصد من إرسال الرسـالات، وتجلـي الفكرة بتجسدها الكامل في أرض الواقع.

في التاسع من ذي الحِجة، في يوم عرفة، من السـنة العاشـرة للهجرة، وبينما الناس جميعاً يقفون في عرفات، يشـهدون الموقـف، ويشهد لهم الموقف، نزل الوحي بالإعلان الآتي: "... **اليـوم يـئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام دينـاً** ": فـي عرفـات اكتملت المعرفة، واكتمل العمل. أما البداية فقد كانت في غار حـراء والرسول، عليه السلام، في الغار وحده. وبعد سنين وسنين، وبعد أن بُنيت الأمة لَبِنة لبنة، كان لا بد للبناء أن يكتمل في العلن، وفي ضوء الشمس. كيف لا، وقد أُخرِجت الأمة وتخرجت ؟!

أما اليوم فإن كلّ الوقائع تُرهص بالاكتمال، كما يرهص الهلال باكتمال البدر، مع يقيننا بأن التاريخ لن يعيد نفسه، ومع يقيننا بأن أمة الصحابة هي المثال البشري الأعلى الذي لن يتكرر، لأنّه وجد ليكون

المقياس. ولكن المؤشّرات كلها تقول إن الغد، بـإذن ا ، خيـر مـن اليوم. وقد يعجبُ البعض من هذا القول، كما عجِـب آخـرون مـن بشريات الرسول، عليه السلام، عنـدما حاصـر الأحـزابُ المدينـة المنورة، وما علموا أن هذا الحصار، والذي كـان يمثّـل أوج الكيـد الكُفري، هو في حقيقته وواقعه، الامتحان الذي سيتم بعده تخريج خير أمة أخرجت من أجل الناس.

# الحـج

جاء في الآية 97 من سورة آل عمران: " **و على الناس حـج البيت ...**" وجاء في الآية 27 من سورة الحج: " **وأذّن فـي النـاس بالحج...**". فالحج يُمثّل الأفق العالمي للدين. وإذا كان الحج هو الركن الخامس، فإن تشريعه أيضاً جاء خامساً بعد الأركان الأربعة. وتمثـل هذه الشعيرة خلاصة أساسيات الدين. والمتدبر لرموز كل خطوة مـن خطوات الحاج يجد الانسجام بين قـوانين الحـج وقـوانين الحيـاة الإنسانية، فالحج ثري بالرموز والدلالات.

يمكن الحكم على صِدقية أي دين على أساس مدى انسجام مبادئه وأحكامه مع قوانين الكون؛ فمن غير المتصور أن تتنـاقض مبـادئ الدين الحق وأحكامه مع قوانين الخلق وسننه، لأن الذي خلق هو الذي أنزل. وإذا كان الخمر ضاراً كسنّة كونية، فلا بد أن يكـون محرمـاً كسنّة تشريعية. ومن هنا نجد أن الفقهاء، وبعد استقراء أحكام الشريعة الإسلامية، ذهبوا إلى أن الشريعة الإسلامية تقصد في أحكامهـا إلـى المحافظة على الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وبمعنى آخر فقد جاء الدين ليحقق الانسجام بين حركة الإنسان وحركة الكون مـن حوله. وعليه يمكن تعريف الطاعة: بأنهـا الانسـجام بـين القـانون

الشرعي والقانون الكوني. ويمكن تعريف المعصية: بأنها التعـارض والتناقض بين القانون الكوني والسلوك البشري. وعنـدما نقـول: إن الإسلام هو الحل، فإنما نقصد أن نقول: إن الانسجام هو الحل.

يجعل الحاج المسلم الكعبة عن يساره ويبدأ الطواف في حركـة دائرية ومتواصلة، وبذلك يكون الإنسان قد أعلن في حركته هذه عـن انسجامه الطوعي مع حركة الكون، من أصغر جزء فيه، أي الـذرة، إلى المجموعة والمجرة. نعم إنّه إعلان المخلوق الحر، بأن الحريـة، والتي هي منحة ا تعالى للإنسان، لا تعني الفوضى ولا الخروج ولا التناقض، بل هي التوافق والنظام والانسجام. وهذه هي الرسالة الأولى للدين الحق.

المتدبر لحركة الإنسان في الأرض يجد أن قانون التـردد بـين الخوف والرجاء هو القانون الأساس في بناء الحضارات الإنسـانية؛ انظر إلى حركة الناس على مستوى الاقتصاد، تجد أن أهـم دوافـع حركتهم هو الخوف من الفقر ورجاء الغنى. وانظر إلى عالم الدراسة والتعليم، تجد أن الدافع إلى الجد يكمن في الخوف من الإخفاق، وفـي ورجاء النجاح. وانظر إلى تقدم الطب، تجد خـوف الألـم ورجـاء العافية، وخوف الموت ورجاء الحياة... وهكذا نجد أن هـذا القـانون يشمل كل نشاطات الحياة. وفي الوقت الذي ينعدم فيه قُطبُ الخوف أو قطب الرجاء، نجد أن الحركة تتوقف؛ فالخوف الذي لا رجاء عنـده

يُحبط القدرات. والرجاء لا يكون رجاء حتى يلابسه خوف. أما الأمن الكامل، إن وُجِد، فهو من أكبر دواعي الخمول والسكون. انظر قوله تعالى: " **إنّه لا يأمنُ مكر ا إلا القوم الخاسرون** ". فـي المقابـل: " **إنّه لا ييأس من روح ا إلا القوم الكافرون** ". ثم انظر قوله تعالى: " **يدعوننا رغباً ورهباً** "، " ...**خوفاً وطمعاً** ".

هل كانت هاجر، عليها السلام، تدرك وهي تسعى بـين الصـفا والمروة، تبحث عن الماء ثم ترجع مهرولة إلى رضيعها إسـماعيل، عليه السلام، لتطمئن عليه، أن هذه اللحظات الجليلة ترمز إلى قـانون الخوف والرجاء؟! وكيف بها لو كُشف لها الغيب فرأت الملايين مـن الحجاج تُحاكي حركتها في سعيها الحثيث بين القطبين؟! إنّه القـانون والسنّة المحكّمة قبل أن تكون الحادثـة، بـل إن الترغيـب بالجنّـة والترهيب من النار، في كل دين حق، لهو بعض تجلّيات حكمة خالق القوانين والسنن. وما تلك الحادثة إلا بعض تكريم الحكيم لمن اصطفى من عباده.

# طواف الوجود

المتدبر لشعائر الحج يلحظ تجلّي الرمزية في كل عمل من أعمال الحجيج. ولكننا نهدف هنا إلى أن نلفت الانتباه إلى بعض رموز شعيرتي الطواف ورمي الجِمار. ومعلوم أن الطّواف حول الكعبة المشرفة هو من أهم أعمال الحج، وأكثرها تكرراً. والطواف صلاة، كما جاء في الحديث الشريف، بل إن الطواف مقدم على الصلاة عند البيت الحرام. وإذا كان الطواف سبعة أشواط، فإن رمي الجمار يكون سبع حصيات. وإذا كان الطواف يتكرر بشكل لافت، فإن رمي الجمار يتكرر أيضاً.

يقوم الكون في جوهره على الحركة، ولا يعرف العِلم وجوداً مادياً ساكناً، وإذا كانت الذرة هي المكون الأساسي للمادة المعروفة، فإن صيغة الطواف هي الأبرز في العلاقة بين مكونات الذرة؛ فالالكترونات في حالة طواف دائم حول النواة، ويكون ذلك في مدارات لا تزيد عن سبعة، وإنْ وجد المدار الثامن فمن أجل حلّ هذه العلاقة ونقضها. ويدهشك أن تجد أن هذه العلاقة تتجلى أيضاً في المجموعات والمجرات الفلكية، أي أن صيغة الطواف هي الأبرز في

خالق الكون، من أصغر ذراته إلى أكبر مجراته. إنه الانسـجام التـام والتناسق البديع.

بسم ا الرحمن الرحيم، هي أول آية في ترتيب المصـحف. ولما كانت كل حركةٍ للإنسان في هذا الوجود يجب أن تصدر باسـم ا ، الذي تتجلى رحمته بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فستكتمل عندها الصورة، وسيتحقق الانسجام الكامل في حركة الوجـود. وإن صـح التعبير فإن الدين هو الرياضة التي تعلمك كيف تُحقق الانسجام مـع حركة الكون، لتكتشف أن الكون يبلغ في انسجامه غاية الجمال والكمال. أما الخروج على تعليمات وإرشادات الخالق الحكـيم فهـي الحركـة العشوائية التي تجعل الإنسان يبرز كنغمة شاذّة في لحن الكون الرائع.

عندما يجتمع الناس في بيت ا الحرام لتأدية الركن الخـامس من أركان الإسلام، فإن هذا يعني أنّه قد تحققت الآثار المرجوة مـن القيام بالأركان الأربعة. وعندما تحتشد جموع الحجيج معلنةً: " **لبيـك اللهم لبيك** "، فإن هذا الإعلان هو التأكيد لرغبة الإنسان الطوعية في الانسجام مع حركة الكون المستسلم . من هنا نجد أن الحـاج يبـدأ حجه بالطواف، ويختمه بالطواف، وبين البدايـة والخاتمـة طـواف وطواف. إنّه التعبير العملي عن الاستسلام الكامل، والانسجام التام مع حركة الوجود. إنّه قناعةٌ، وقرارٌ للكائن الحر أن ينسجم طواعية مـع حركة الكون المستسلم فطرياً. إنّها لحظات جليلة، يكتمل جلالها عندما

يستحضر الحاج في ضميره هذه الحقيقة، ويدرك أنّه يعيش لحظات الانسجام الكوني.

إذا كان الخير هو الحركة نحو الانسجام الكوني، فإن الشر هو الحركة نحو التباين والفوضى، وهو الشذوذ المؤذي، وهو التبعثُر المُذهب لجمال الصورة، إنه السير بعكس التيار. لذا لا يمكن لشرٍ أن يدوم، لأنّه مناقض للفطرة ولقانون الوجود. ولا يجوز لنا أن ننتظر حتى يلقى الشر مصيره، باعتباره معاكساً لحركة الوجود، لأننا جزء من هذه الحركة. من هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز الفروض في الشريعة الإسلامية. وفي الوقت الذي نُعلن فيه انسجامنا مع حركة الوجود فلا بد لنا من أن ننسجم أيضاً مع هذا الوجود في رفضه للباطل، ولا بد من ممارسة ذلك عملياً، وهذا ما يعلنه الحاج مراراً وهو يرمي الجِمار، أو كما يُقال: " **يرجم إبليس**".

# السبت

**السبت** فيه معنى الانقطاع، وفيه معنـى الخلـود إلـى الراحـة والدعة. وقد وردت كلمة السبت في القرآن الكريم **(5)** مـرات، وإذا أضفنا كلمة (سبتهم) و (يسبتون) يكون المجموع **(7)** مرات. واللافـت للانتباه أن السبت عند اليهود مرتبط بالعدد **(7)**، ولم يرد السبت فـي القرآن الكريم إلا عند الحديث عن شريعة السبت عند اليهود. والمتدبر للآيات القرآنية المتعلقة بالسبت يدرك أن هناك خصوصية لهذا اليـوم عندهم، وإذا أخذنا ما ورد في التوراة الحالية بعين الاعتبار ندرك أن خصوصية يوم السبت تكمن في كونه يوماً ينقطع فيـه اليهـود عـن العمل الدنيوي، ويفترض أن ينقطعوا فيه إلى العبادة، ولا يتناقض هذا مع ظلال معاني الآيات القرآنية الكريمة.

واضح أن تسمية السبت جاءت من خصوصيته وأحكامـه عنـد اليهود؛ فهناك علاقة بين الاسم وما يفترض أن يمـارس فيـه مـن عبادات، مثل ما أن اسم يوم الجمعة يناسب ما يكون فيه من اجتمـاع المسلمين في المسجد للصلاة. وخصوصية يوم السبت عنـد اليهـود، وخصوصية يوم الجمعة عند المسلمين، يدللان على أن تقسيم الأسبوع إلى سبعة أيام يرجع إلى أساس ديني، ولا نعلم له أساساً فلكياً. وقـد

نص القرآن الكريم، وكذلك نصت التوراة المحرفة على أن ا تعالى قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام. وقد يعني هذا أن اليوم السابع هو اليوم الذي جاء بعد تمام الخلق، أي أنّه اليوم الذي لم يكن فيه خلق يتعلق بالسماوات والأرض، أي أنّه يوم انقطاع. وقد يكون هذا التفسير مقبولاً في توضيح العلاقة بين السبت والعدد سبعة. ولا يُقبل إطلاقاً ما يزعمه اليهود من أن ا تعالى قد استراح في اليوم السابع.

لا نستطيع أن نركن إلى التوراة الحالية لما طرأ عليها من إضافات وحذف عبر القرون. ولكن الدارس يلاحظ أن مفهوم السبت عند اليهود يتعلق بيوم السبت الذي هو اليوم السابع من الأسبوع، ثم هو يتعلق بالسنة السابعة، التي يجب أن تكون السنة التي لا تزرع فيها أرض فلسطين، بل تكون راحة للأرض. ويتكرر هذا كل سبع سنين. وبعد سبع سبوتات، أي **(49)** سنة، تكون السنة أل **(50)** هي سنة اليوبيل، ولها أحكام فُصلت في السفر الثالث من أسفار التوراة. ويلحظ الدارس للتوراة أن عدم احترام اليهود لهذه الشريعة يكون سبباً لإخراجهم من الأرض المقدسة، وسبباً لتشتيتهم في الأرض. ويبدو أن ذلك أدى إلى الربط بين الرقم **(7)** والزوال والانقطاع. لذا يعتقد اليهود بأن دنيا الإنسان تكتمل سنة **(6000)** عبري، أي أنّه في الألف السابعة يكون الزوال بزعمهم. وبالرجوع إلى القرآن الكريم نلاحظ أن السبع مرات التي ذكر فيها السبت تكرر ثلاث منها في السورة السابعة،

وهي سورة الأعراف. وآخر ورود لكلمة السبت في القـرآن الكـريم كان في الآية **(124)** من سورة النحل والتي هي **(128)** آية، ثم تـأتي سورة الإسراء التي تتحدث عن زوال الإفساد الإسرائيلي من الأرض المقدسة: "إنما **جعل السبت** على الذين اختلفوا فيه.....".

واضح أن جعل السبت كان بعد الاختلاف فيه، وهـذا يعنـي أن **(جعل)** السبت يختلف عن **(فرضه)**؛ فاحتيال اليهود لانتهـاك حرمـة السبت، وذهابهم في هذه الحيل مذاهب شتى، أدى إلى التشديد علـيهم في أحكام السبت، فكان السبت من الإصر الذي حملوه نتيجة فسـوقهم وعصيانهم وانتهاكهم لحرمات السبت ابتداء. والمتدبر لسياق الآيـات من سورة النحل يلاحظ أن هناك شيئاً آخر، ألا وهو حكم ا علـيهم بالانقطاع، فلم يعودوا ضمن المسيرة المتصلة لـدعاة الخيـر، ولـم يعودوا من قادة الهداية، ولم يعودوا يسيرون تحت لواء التوحيد. فكان اعتداؤهم واحتيالهم، وتفرقهم باتباعهم الأهواء، سبباً في حـذفهم مـن قافلة الخير، فانقطع وجودهم وذكرهم في عالم الصلاح والإصـلاح، فلا تجدهم إلا أئمة للفسق وقادة للشر.

وأخيراً نقول: من يقرأ عجائب صنع اليهود في احتيـالهم للقفـز عن المقدسات، يدرك أن يهود اليوم على استعداد أن يتنكـروا لكـل مقدس، بشرط أن ينسجم ذلك مع مصالحهم المادية، أي مـع عجلهـم المقدس المصنوع من الذهب.

# التابوت

جاء في الآية **248** من سورة البقـرة: " **إن آيـة مُلكِـه أن يأتيكم التابوتُ فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسـى وآل هارون تحمله الملائكة** ...".

عندما طلب بنو إسرائيل، قبل عهد داود عليه السلام، أن يجعـل ا لهم ملكاً يجمعهم، ويوحد كلمتهم، ويقودهم في حربهم لأعـدائهم، استجاب ا لهم، وجعل طالوت ملكاً عليهم، وجعل علامة اختياره أن تأتي الملائكةُ بالتابوت، الذي استولى عليه أعداؤهم. وهو صندوق فيه بقية من آثار آل موسى وهارون، عليهما السلام، توارثه الصـالحون من بني إسرائيل. وعند عودة التابوت إليهم جعل ا فيـه الطمأنينـة لنفوسهم، التي بقيت مضطربة لفقده واستيلاء الأعداء عليه.

واضح في النص القرآني الكريم أن التابوت له قدسـية، وعلـى وجه الخصوص ما فيه من الآثار المتوارثة من عهد موسى وهارون، عليهما السلام. ونحن نعلم أن ا تعالى قد أنزل على موسى، عليـه السلام، الألواح، والتي خطّت فيها الوصايا، وقـد جـاء فـي سـفر الخروج، في التوراة الحالية: " واجعل في التـابوت الشـهادة التـي

أعطيكها ". والمقصود بالشهادة، ما ورد في سفر الخـروج أيضـاً: " ولما فرغ من مخاطبة موسى على طور سيناء دفـع إليـه لَـوْحي الشهادة، لوحين من حجر ...". وقد ورد في سفر صموئيل أن أعـداء بني إسرائيل قد سيطروا على التابوت هذا لمدة سبعة أشهر.

كلمة التابوت مشتقة من التّوب: وهو الرجوع، لأنه يُرجع إليـه تكراراً لأخذ وإرجاع المُودعات فيه. وعليه تكون اللفظة عربية، على قول الكثير من أهل اللغة. وقد ذكرت التوراة الحاليـة أن التـابوت، المقدس عندهم، صنع من الخشب والـذهب بـأمر مـن ا تعـالى. ويقولون إن طوله يبلغ متراً وربع المتر، أما عرضه فيبلغ **75** سـم، وكذلك ارتفاعه. وورد أن بني إسرائيل كـانوا يحملـون التـابوت ويتقدمون به أمام الجيش، فيكون ذلك دافعاً لهم للاستبسـال، لثقـتهم بالنصر بوجود التابوت. وقد ورد في أخبار الأيام الأول، من العهـد القديم، على لسان داود، عليه السلام: ".. حتى نُرجع تـابوت إلهنـا، لأننا أهملنا طلب المشورة بواسطته منذ أيـام شـاوُل ". ويقصـدون بشاوُل هنا طالوت المذكور في القرآن الكريم.

والتابوت عندهم من أقدس المقدسات، وكانوا في البداية يضعونه في وسط خيمة، ثم أحضره داود، عليه السلام، حسب روايـة العهـد القديم، إلى (مدينة داود). وتقول الرواية إنّه عندما بنى سليمان، عليـه السلام، الهيكل وضع التابوت في أقدس بقعة منه، وتسـمى ( قـدس

الأقداس): وهي عبارة عن غرفة لا نوافذ لها، وتكون أعلى جزء في الهيكل، وهي محرابه. وهم يعتقدون أن روح ا قد حلّت في التابوت. وعندما تم تدمير الهيكل 586 ق.م على يد نبوخذ نصر البابلي، فُقدت التوراة، وفقد تابوت العهد. ويبدو أنّه تم إحراقهما مع ما أُحرق من محتويات الهيكل. واللافت للانتباه أن سفر أخبار الأيام الثاني، من العهد القديم، والذي يُرجح أنّه دون في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي ينتهي بالحديث عن تدمير الهيكل وإحراق محتوياته، ينص على بقاء العصي التي يُحْمل بها التابوت، ولم يتطرق إلى ذكر التابوت. يقول النّص: " ... وهي ما برحت هناك إلى هذا اليوم ...". وواضح أن الذي يكتب هذا الكلام يكتبه وهو يقيم بعيدا، ويظهر ذلك من قوله "هناك".

كثرت القصص والأساطير حول مصير التابوت. ومن هذه القصص قصة تقول إن ابن سليمان، عليه السلام، من زوجته بلقيس، فر بالتابوت إلى مصر، ثم نقل التابوت إلى الحبشة. ولكن اليهود لا يزالون يبحثون عن هذا الصندوق الخشبي الصغير، والذي مضى على صناعته ما يقرب من (3200) سنة، على أقل تقدير. ويتوقّع بعضهم أن يكون مدفوناً في ساحات الأقصى. وبالمناسبة نرى أنّه من المصلحة أن نذكر أن رجلاً فلسطينيا، ممن شارك في ترميم وإصلاحات المسجد الأقصى في العهد الأردني، ذكر بعد أن سمع بدرسنا الذي ألقيناهُ في مسجد البيرة الكبير حول التابوت، أنّه رأى من

يدفن صندوقاً تنطبق عليه الأوصاف في موضع من المسجد الأقصى. نعم، ما الذي يمنعهم من أن يصنعوا تابوتاً وفق الأوصاف الواردة في العهد القديم، ثم يدسوه في التراب، ثم يزعموا اكتشافه بعد نصف قرن أو يزيد، ليكون الدليل والمستند على أن لهم حقّاً في فلسطين، بعد أن كذّبتهم كل الآثار والحفريات، فقد اعتدنا أن نرى منهم كل غريب، فهم يستخدمون المقدس وغير المقدس لأجل أغراضهم الدنيوية، ولا شيء عندهم مقدساً إلا مصالحهم.

# بنو إسرائيل

**إسرائيل**: هو نبي الله يعقوب، عليه السلام. وبنوه هم أصحاب القصة التي فُصلت في سورة يوسف، ويوسف، عليه السلام، هو واحد منهم، وهم الذين سموا بالأسباط، وقصتهم الواردة في القرآن الكـريم تبين أنهم سكنوا مصر قبل وفاة والدهم، عليه السلام. وبعد ما يقارب **450** سنة، بُعث موسى، عليه السلام، لينقذهم من ظلـم واضـطهاد الفراعنة، ومن هنا بدأت العلاقة بـين بنـي إسـرائيل واليهوديـة. واستمرت هذه العلاقة لقرون، بين مد وجزر، إلى أن انتهت واقعيـاً بفك الارتباط بين اليهودية وبني إسرائيل؛ فبعد أن كانـت اليهوديـة تنحصر في بني إسرائيل أصبحت الغالبية العظمى من اليهود تنتمـي إلى أجناس وقوميات مختلفة.

بعد وفاة سليمان، عليه السلام، **(953 ق.م)**، انقسـمت الدولـة اليهودية إلى دولتين: **إسرائيل** في الشمال، **ويهوذا** في الجنوب. وكان شعب دولة إسرائيل يتألف من أحفاد عشرة من أبناء يعقـوب، عليـه السلام، كما يذكر العهد القديم. أما دولة يهوذا فشعبها هم أحفاد اثنـين من أبنائه، عليه السلام. وكان بين الدولتين حروب وأحقاد، واستشرى فيهما الفساد، وعمت الانحرافات، إلى درجة أنهم ارتدوا إلى الوثنيـة

وعبادة الأصنام، واستمروا في ذلك حتى لاقوا مصـيرهم المحتـوم بغزو الآشوريين للدولة الشمالية عام **(722 ق.م)**، فجرى سبي الشعب بكامله إلى العراق، وبذلك أسدل الستار على علاقـة عشـرة أسـباط بالديانة اليهودية، ولم يعودوا يهوداً، فقد انخرطوا في الشعب الغـازي وتأثروا بعقائده، وذابوا فيه.

أما الدولة الجنوبية فقد قام الملك البابلي نبوخذ نصر بغزوهـا وتدميرها عام **(586 ق.م )**، وسبى من بقي منهم حيـاً إلـى العـراق أيضا. وبعد مضي سبعين سنة على هذا الحدث عادت قِلّة من هـؤلاء المسبيين إلى فلسطين، وذلك في عهد الملك كورش الفارسـي. وقـد اضطرت هذه القّلة أن تُكثّر عددها بإدخال جزء من أهل البلاد إلـى اليهودية، وبذلك بدأت اليهودية تنتشر بين من هـم مـن غيـر بنـي إسرائيل، واستمر ذلك إلى أن جاء السبي الروماني في العام **(70 م)**، والعام **(135م)**؛ فشُتّت شمل اليهود في أرجاء العالم، ممـا أدى إلـى ذوبانهم في الأمم. في المقابل كان هناك من الشعوب من تهود، كمـا حصل في مملكة بحر الخزر، والتي دامت من عام **(860-1016م)**. وكما حصل من تَهود بعض قبائل العرب وغيرهم. واستمر الخـروج من اليهودية والدخول فيها عبر القرون مما أدى إلى انفكاك العلاقـة بين اليهودية كدين وبين بني إسرائيل كعنصر. وتسـتطيع أن تقـول اليوم إن الغالبية العظمى من بني إسرائيل القدماء قـد تحولـوا إلـى الإسلام، أما البقية الباقية فتحول معظمها إلى المسيحية. مـن هنـا لا

صحة اليوم للادعاءات التي تزعم وجوداً تاريخياً لقومية يهودية في فلسطين، لأن اليهودية هي دين اعتنقته شعوب مختلفة. وكلامنا هذا لا يعني أنّه لا يوجد في يهود اليوم من له علاقة نسب ببني إسرائيل القدماء، وعلى وجه الخصوص أحفاد أولئك الذين كانوا في الجزيرة العربية زمن نزول الرسالة الإسلامية، والذين تحول عدد منهم، عبر العصور، إلى الإسلام وآخرون إلى المسيحية.

واليوم يتكرر في وسائل الإعلام الإسرائيلية أخبار البعثات اليهودية التي تسافر إلى أفغانستان للبحث عن أحفاد دولة إسرائيل الأولى، اعتقاداً منهم بأن الأغلبية العظمى من الشعب الأفغاني، أي قبائل البشتون، هم الأسباط العشرة الضائعة. ومعلوم أن هؤلاء من المسلمين السنّة، ولا يبعد أن يكون لهم في المستقبل دور في تحرير فلسطين من سلطان الصهيونية، ليعلم الناس أن العقائد والفلسفات هي التي تصنع الأمم والجماعات، وأن العنصريات تقوم على الأوهام، وأن الصراع في جوهره هو بين الحق والباطل. وإذا كانت إسرائيل الأولى تضم شعباً متجانساً من الناحية العِرقية، فإن إسرائيل اليوم تتألف من **سبعين** قومية يتكلمون **تسعين** لغة.

# الشجرة الملعونة

قال تعالى في سورة الإسراء، الآية 60: " **وما جعلنا الرؤيـا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن** ".

يرى جماهير المفسرين أن الشجرة الملعونة هنا هـي شـجرة **الزقّوم**. أما الشيعة فإنهم يذهبون إلى أن الشجرة الملعونة هم بنو أمية، ويستندون في ذلك إلى حديث شريف ينص على: " أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد رأى في المنام بني الحكم، أو بني العاص، ينـزون على منبره كما تنزو القرود، فأصبح كالمتغيظ...". والتشيع واضح في الربط بين هذا الحديث والآية الكريمة. وفي الوقت الـذي نجـد فيـه مفسراً شيعياً معاصراً كالطباطبائي، صاحب تفسير **الميزان**، يُقوي هذا القول عند تفسيره للآية الكريمة، نجد أن الطبرسي، صاحب تفسـير **مجمع البيان**، وهو من كبار علماء الشـيعة فـي القـرن السـادس الهجري، يجعل هذا التفسير قولاً ثالثاً.

الملاحظ أن القرآن الكريم لم يلعن شجرة الزقّوم، وبالتالي كيـف يمكننا أن نقول إنها الشجرة الملعونة ؟. لذلك قال بعض المفسرين إن المقصود بالملعونة أي الملعون آكلها. وهذا تقدير تأباه اللغة العربيـة، ثم إن اللعن، الذي هو الطرد من الرحمـة، لا يكـون إلا للمكلفـين،

والشجرة، كما هو معلوم، غير مكلفة، ولم ترتكب جُرماً حتى تُلعـن. وقال البعض إن الشجرة هي وسيلة لتعذيب الكفار ومـن هنـا جـاء اللعن. وهذا المعنى تأباه اللغة، ويأباه العقل، ويأباه النص القرآني، لأن خزنة جهنم هم من الملائكة، ولا يتصور لعنهم لمجرد أن لهم علاقـة بتعذيب الكفار. وعليه نرى أن آراء جماهير المفسرين مضطربة عند القول بأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم المذكورة فـي القـرآن الكريم. وما نجده اليوم في كتب التفسير هو نوع من متابعـة بعـض المفسرين لبعض.

الماوردي من أشهر علماء القرن الخامس الهجري، وله تفسـير **(النكت والعيون)**، ويتميز بجمعه لآراء المفسرين على صورة سـهلة ومختصرة. وهو يورد في الشجرة الملعونة أربعة أقـوال، ويجعـل القول الرابع في القوم الذين يصعدون منبر الرسول، صلى ا عليـه وسلم. أما القول الثالث فيقول فيه: " أنهم اليهود تظاهروا على رسول ا مع الأحزاب، قاله ابن بحر ". أما كيف يمكن أن يكـون النسـل شجرة ؟! فنجد الماوردي يقول: " والشـجرة كنايـة عـن المـرأة، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجرة ". فالنسل هو في حقيقتـه شجرة نامية ومتفرعة. وإن كل ما يقوم على أصل اعتقادي، ويتفـرع عن هذا الأصل، هو في حقيقته شجرة. والقرآن الكريم مثّـل الكلمـة الطيبة، والتي هي الإسلام، بالشجرة الطيبة. وشـبه الكلمـة الخبيثـة بالشجرة الخبيثة. وإذا كان اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن، فهذا

يكون على اعتبار أنهم يلتقون في أصل اعتقادي، ولا يصح أن تكون اليهودية قائمة على النسل، لأن اليهودي في الحقيقة هو الذي يـؤمن بالأصول اليهودية؛ في الاعتقاد والتشريع، والأخلاق. والعدل يقتضي أن يكون اللعن نتيجة لممارسة الفرد أو الأمة لأمر اختياري.

الذي يُرجح أن المقصود بالشجرة الملعونة هم اليهود، أمور منها:

أولاً: إن الآية التي نحن بصددها هي في سورة الإسراء، والتي تسمى أيضاً **سورة بني إسرائيل**، وهي تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة. وتُسْتَهل السورة بنبوءة مستقبلية تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة. ويرد الكلام عن هذا الإفساد في خـواتيم السـورة أيضاً، مما يشير إلى مركزية هذا الحدث في السورة، التـي تسـمى الإسراء، وفي هذا إشارة إلى المسجد الأقصى. أما تسمية سورة بنـي إسرائيل فتشير إلى الإفساد. وعليه لا يبعد أن تكون الرؤيا تتعلق بهذه القضية المحورية في السورة.

ثانياً: طريقة كتابة كلمة **الرؤيا** في قوله تعالى: " **وما جعلنـا الرؤيـا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة...**"، تُرجح أنها رؤيـا منامية. ولو كانت رؤية بصرية لكتبت هكذا: رؤية. وقد نقل عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسـن، وقتـادة، ومجاهـد: أن مـا رآه الرسول، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء والمعراج هـو الرؤيـا المذكورة في هذه الآية. وبما أنها تمت ليلاً، وتحدث عنها الرسـول،

صلى ا عليه وسلم، عندما أصبح، فقد سماها القرآن الكريم **رؤيا**. وهي أيضاً فتنة للناس الذين كذبوا خبر الرسول، عليه السلام. والذي نراه أن المسألة لا تتعلق بالرؤية البصرية، أو المنامية، وإنما تتعلق بالأمر الذي رآه الرسول، عليه السلام؛ فإذا كان قد رأى ببصره أموراً واقعة فهي إذن **رؤية**. **وإذا كان قد رأى أموراً ستقع في المستقبل فهي رؤيا؛ لأنها غير موجودة في الحال وإنما في الاستقبال**. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في سورة الإسراء: " **لنريه من آياتنا**..." وفي سورة النجم:" **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ...". على ضوء هذا لا يوجد ما ينفي احتمال أن يكون ما رآه الرسول، عليه السلام، من أمور مستقبلية كانت تتعلق بسيطرة اليهود على المسجد الأقصى، وعلى الأرض المباركة، والتي هي عقر دار الإسلام، وتتعلّق أيضاً بسيطرة هذه الشجرة الخبيثة على المستوى العالمي، وذلك في المرحلة الزمنية نفسها. ولا شك أن ذلك يُحزن الرسول، صلى ا عليه وسلم، فكانت التعزية له، عليه السلام، أن قيل له: " **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** "؛ فمقاليد الأمور هي بيد ا ، أما ما رأيتَه يا محمد من سيطرة هؤلاء فهو نوع من الفتنة للبشر، وما رأيتَه فهو في حقيقته الشجرة الملعونة، وبالتالي لن تكون لها ثمار ممتدة، بل إن هذه السيطرة العارضة محكوم عليها بالإخفاق، وهي مطاردة باللعن الإلهي. وهذا يعني أن سيطرة اليهود في أيامنا هذه تنحصر في كونها فتنة أرادها ا لتمحيص الناس، وهي سيطرة

الشجرة الملعونة، التي هي شجرة خبيثة، جذورها واهيـة، وثمارهـا غير مباركة، ومن هنا يسهل على أهل الحق أن يجتثّوها، وأن يقـوا الناس من آثارها الخبيثة.

ثالثاً: يقول تعالى: " **الشجرة الملعونة في القرآن** ". وهذا يعني أنّه لا بد أن نجد لعنها في القرآن. وبالرجوع إلى ألفاظ اللعن فـي القـرآن الكريم نجد أن **لعن ومشتقاتها** قد وردت **(41)** مرة. ولوحظ أن منها **(18)** مرة وقع فيها لعن اليهود على وجه الخصوص، ولـم يشـترك غيرهم معهم في هذه اللعنات. أما باقي اللعنات، فإنها كانت للكافرين، أو الظالمين، أو الكاذبين... ولا شك أن اليهود يشـتركون فـي هـذه الصفات مع غيرهم. وعليه ألا تكون هذه الملاحظة الإحصائية مؤشراً على أن اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن؟ ولا ننسى أن الكثيـر من الأفكار والمذاهب والمدارس المنحرفة هي من صنع اليهـود، أو هي متـأثّرة بعقائـدهم؛ كالماركسـية، والوجوديـة، والماسـونية... والمستهدف بهذه الأفكار والمذاهب هم البشر، الذين نزلت رسـالات السماء رحمة بهم. أفلا يستحق اللعنة كل من نصب نفسـه عـدواً ولرسالاته، وعدواً للحق والعدل ؟! ألم يخبرنا الواقع بأن هـذا هـو مسلك اليهود عبر العصور المختلفة وإلى يومنا هذا ؟! بل إن القـرآن الكريم ينص على أن هذا سيكون مسلكهم إلى يوم القيامة.

"**وما جعلنا الرؤيا التي أرينـاك إلا فتنـة للنـاس، والشـجرة الملعونة في القرآن**". فسر العلماء الآيةَ على أساس أن الرؤيا شيء، والشجرة الملعونة شيء آخر. والمعنى عندهم: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، وكذلك الشجرة الملعونة فتنة أيضاً. وهذا الوجه تحتمله اللغة، والذي نراه أقرب إلى ظاهر النص أن يكون المعنـى: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، وجعلناها أيضاً الشـجرة الملعونة، التي يرد لعنها في القرآن. وهذا يعني أن الرؤيا هنا يقصـد بها الشيء المرئي، أي موضوع الرؤيا. وعلى هـذا يكـون مـا رآه الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أمر هو في واقعـه فتنـة للنـاس وابتلاء لهم، وهو عند الله شجرة ملعونة، وهذا اللعن حكم به الله تعالى في القرآن الكريم. وفي رأينا أن اليهود هم فتنة للنـاس علـى مـر العصور، وهم أيضاً شجرة ملعونة محكوم أن لا تثمر جهودهم ثمـراً يدوم ويستمر، وهذا من رحمة الله بعباده. وحتى يتّضح المعنى بشكل أفضل نقول: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا **فتنةً** للنـاس **وشـجرةً** ملعونة في القرآن الكريم. أما إضافة (ال) إلى كلمتـي: (**شـجرة** و **ملعونة**) فإنها تعني أن هذه هي الشجرة الوحيدة الملعونة في القـرآن الكريم، أما لعن باقي الظالمين، أو الكافرين، أو الكـاذبين، فقـد ورد دون أن ينسب أصحاب هذه الصفات إلى شجرة.

بالرجوع إلى واقعنا المعاصر يمكن أن نستفيد من تدبر هذه الآية الأمور الآتية :

أولاً :إن سيطرة اليهود في فلسطين، وكذلك سيطرتهم على المستوى العالمي، ما هي إلا فتنة وابتلاء وتمحيص للناس. ومعلوم أن الفتن يقصد منها أن يتميز الناس في مواقفهم، ولا بد أن ينتج عن هذا واقع أفضل، **فالفتن هي قانون في التغيير**.

ثانياً: إن المذاهب والفلسفات المنبثقة عن اليهودية، والتي حاولت وتحاول أن تفسد المجتمعات البشرية، لا بد أن تتلاشى. والماركسية من أوضح الأمثلة على ذلك.

ثالثاً: إذا كان الإسلام شجرة مباركة، وكانت اليهودية شجرة ملعونة، فإن هذا يعني أن العقبات التي يُقيمها اليهود في طريق المسلمين، هي من ضرورات هذا الطريق الحق، ولكن لا بد في النهاية من ثمار طيبة تطرحها شجرة الإسلام المباركة. أما الثمار الخبيثة للشجرة الملعونة فإن الفطرة البشرية تأباها وتمجها.

# السامري

ورد اسم **السامري** في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في سورة طه. وقد اختلف في معنى هذا الاسم، ويرجح لدينا أنّه نسبة إلى **(شومير)** والذي يعني بالعبرية الحفظ والحراسة. هذا يجعل من المحتمل أن يكون السامري أحد كبار الكهنة، ومن حراس وحفظة العقيدة الوثنية. وإذا كان الاسم نسبة إلى **(سامر)** العربية، والتي تعني الساهر، فإنها تلتقي في مآل المعنى مع شومير، التي تعني الحراسة. وأمثال هؤلاء الكهنة والحراس يكون لديهم العلوم والقدرات التي تميزهم على أهل عصرهم، ويغلب أن تكون لديهم قدرات قيادية. وقد يفسر هذا السرعة التي استطاع فيها السامري أن يُضل بني إسرائيل، ويستغل غيبة موسى، عليه السلام.

إن مثل هذه الشخصية يمكن أن تتكرر في حياة الدعاة والدعوات، ومن قَبْلُ في حياة الرسل، وفي طريق الرسالات. من هنا لا معنى لمحاولة البعض أن يُضفي الطابع الأسطوري على هذه الشخصية. والغريب أن نجد اليوم كتابات كثيرة تلقى القبول لدى الناس، ولا يميزها إلا ميلها إلى الأسطورة والخرافة، وإغراقها في الأوهام والتخيلات، تماماً كأفلام الخيال العلمي، إلا أنها بعيدة عن

العلم. ويستغل هؤلاء الكتّاب الغموض الظاهري لبعض ألفاظ القـرآن الكريم، والسنةّ الشريفة. والغالبية منهم تقصد إلى التجـارة والـربح المادي. منهم من كتب عن المهدي، ومنهم من كتب عن إبليس ومثلث برمودا، ومنهم من كتب عن الدجال والسامري، ومنهم، ومنهم... وقد لا يعنينا أن نلوم هؤلاء من الذين يطلبون الشهرة والمال، ولكننا نلوم العلماء الذين لا يزالون يرددون ما لا يصح مـن أوهـام وأسـاطير وإسرائيليات أُدخِلت في كتب التفسير، وراجت في أسـواق العامـة، فكانت التربة الخصبة لصائدي السُذّج والبسطاء.

لقد استغل السامري قرب عهد بني إسرائيل بالوثنيـة، واسـتغل كهانته السابقة، وكونه من حراس الفكرة الوثنية، فاستطاع بزعمه أن يمحو الأثر الذي أحدثته رسالة موسى وهرون، عليهما السـلام. لـذا نجده لا يستحي من التباهي بقدراته التي مكنته من إزالة الأثر الخيـر الذي أحدثته الرسالة الجديدة فقال: " **قَالَ بصُرْتُ بِما لَمْ يبْصُـرُوا بِـهِ فَقَبضْتُ قبْضةً مِنْ أَثَرِ الرسُول فَنَبذْتُها وكَذَلِك سولتْ لِـي نَفْسِـي". (طـه:96).**

إن الغموض الظاهري لهذه العبارة فـتح المجـال للكثيـر مـن المفسرين أن يتّكِئوا على روايات منسوبة إلى ابن عباس، رضـي ا عنهما، وليقولوا إن السامري قد رأى جبريل، عليه السـلام، يركـب حِصانه، واستطاع السامري أن يأخذ قبضة من التراب الـذي داسـه

حصان جبريل، وساعدته هذه القبضة على أن يبعث الحياة في العِجل الذي صنعه من ذهب، ليعبده بنو إسرائيل. وبهذا وجدناهم يصـنعون حول السامري هالة تجعله شخصية غامضة، قادرة على بعث الحيـاة في المادة. ثم نجد بعض المعاصرين تذهب بهم أوهامهم إلى درجة أن يتصوروا استمرار حياة السامري، لأن موسى، عليه السلام، قال له: " **وإن لك موْعِداً لنْ تُخْلَفَه**... " **(طـه:97).** ويرد هذا كثير في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في سورة الكهف: " **بلْ لهُمْ موْعِدٌ لنْ يجِـدُوا مِنْ دُونِهِ موْئِلاً** ". ومن يُدقِّق في النص القرآني الكريم يجد أن العجل الذي صنعه السامري هو مجرد **جسد** لا حياة فيه، ثم هو فـي غايـة الإتقان من ناحية الصناعة إلى درجة أنّه يصوت فله خُـوار. ومـن يعرف تاريخ الفراعنة وحضارتهم لا يستغرب حصول مثل هذا الأمر منهم. وقصة موسى، عليه السلام، مع السحرة تبين لنا المدى الـذي وصل إليه الكُهان وحراس العقيدة الوثنية في عالم العلم والصناعة.

إذا كان السامري قد استطاع أن يبعث الحياة في العِجل الـذهبي بزعمهم، فإن ذلك يُعد دليلاً مُلزماً لبني إسرائيل كي يطيعوا السامري، وبالتالي فهم معذورون لا يستحقّون اللوم، لأنهم اتبعوا عن دليل. ولو تدبر الذين ينسبون إلى السامري الخوارق، لفظة (**فنبذتها)،** الـواردة في الآية الكريمة، لأدركوا أن هذه اللفظة تدل على الرمي والإهمال، ولا تدل على الاعتناء والاستخدام؛ فالسامري يتبجح بقدراته العلميـة التي جعلته يُبصر أموراً لم يبصرها الشعب، وبالتـالي اسـتطاع أن

يمحو، بزعمه، آثار رسالة موسى، عليه السلام، من قلوبهم، واستطاع أن يجعلها فكرة منبوذة.

فماذا كان رد موسى، عليه السلام، على هذا المُتبجح ؟ المتدبر للآيات يلاحظ أن موسى، عليه السلام، قد أطلق للسامري حرية الكلام، فقال له: **إن لك مدة حياتك أن تقول ما شئتَ من غير أن تُمس، ومن غير أن يتعرض لك أحد بإساءة.** وهذا الموقف يشبه ما حصل لإبليس في إنظاره، وإطلاق يده في محاولة إضلال الناس، ليكون بذلك آلة من آلات اختبار المكلفين من البشر. كما جاء في سورة الإسراء: " **قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعك مِنْهُمْ فَإِن جهنم جزاؤُكُمْ جزاءً مَوْفُورا** ". **(الإسراء:63).** وهنا يقول موسى، عليه السلام، للسامري، المغتر بعلمه: " **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِن لَك فِي الْحياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساس**". **(طـه:97).** وهذا يعني أن: **(لا مساس)** ليست مقول القول، وبالتالي لا داعي للخيال المُجنح، الذي يحاول أن يتصور لنا المرض الذي يُحتمل أن يكون قد مس السامري، بحيث هام في البيداء بعيداً عن الناس. والذي يبدو لنا أنّه قد بقي مقيماً في الناس، وتُرِك ليدعي ما يشاء، فإن العقيدة الحقة يُجلّيها ويصفّيها كيد الكائدين؛ فما عرف الناس الصحوة الإسلامية إلا بعد معاناتهم من ضلالات الملاحدة والماديين. وإذا أراد ا   نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود.

# الخاتمة

... وبعد

فهذه كانت بداية، نأمل أن تنمو وتتفرع. ونرجو أن نكون قد نجحنا في إثارة اهتمام الدارسين، ليطرقوا باب الأسماء في القرآن الكريم. وإن المقدمات لترهص بنتائج جليلة، تتعلق بالتفسير، وفقه اللغة، والتاريخ والإعجاز القرآني.

لقد قمنا في هذه الدراسة بمس الموضوع مساً خفيفاً، لعلمنا بأن الكثير من النتائج التي توصلنا إليها في عالم الأسماء لا تزال بحاجة إلى دراسة وتحقيق؛ فعندما نجد أن اسم **المسيح**، عليه السلام، في القرآن الكريم هو:"**المسيح عيسى ابن مريم**"، فلا نملك عندها إلا أن نتساءل عن سر هذا التركيب الثلاثي للاسم الكريم، وذلك في الوقت الذي تتبنى فيه النصرانية عقيدة التثليث المزعومة. وعندما نقرأ أن **يحيى**، عليه السلام، لم يجعل ا لهُ من قَبلُ سميا، لا نملك إلا أن نتساءل عن سر هذا الاسم الفريد. وعندما نعلم أن **يعقوب**، عليه السلام، يُسمى في القرآن إسرائيل أيضاً، وأن أبناءه سموا بني إسرائيل، وليس ببني يعقوب، ندرك أهمية الغوص في هذا البحر العميق.

لقد كان لنا توقّف أيضاً أمام اسم **إلياس،** عليه السلام، وأسماء أخرى، فكان لذلك ثمار لما تنضج بعد، نأمل أن تكون هي وغيرها موضوع الجزء الثاني من أسرار الأسماء في القرآن الكريم.

**وآخرُ دعوانا أن الحمد رب العالمين**